سيدو نبيل

محمد نبيل كبها

سيدو نبيل

"نسق"

فلسطين – نابلس – شارع تونس
بجانب مسجد أم سلمة

المفكر الإسلامي
محمد نبيل كبها

الطبعة الأولى
٢٠٢٥م

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any from or by any means without prior permission in writing of the writer

جميع الحقوق محفوظة، يمنع ترجمة أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما فيه التسجيل الفوتوغرافي على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى، بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها لأغراض تجارية بدون إذن خطّي من المؤلّف.

إهداء

الى والدي الذي ترفرف بداخله مدن فلسطين، وتعرفه أرصفة جنين، صديق المساجد وصاحب المواعظ الحاضرة، من ضمّد جراحي الى أن صرت أنا، ولا زالت أنا وجراحي نمد بأيدينا نحو منديله الذي مسح به ريبة هذا الزمن.

بصوته شيء ما بداخلي يتنفس، وعندما يتنفس تعود أناي للحياة، فأرى جنين والقدس وغزة وطول كرم وطوباس وسلفيت وقلقيلة وأريحا ونابلس ورام الله والخليل وبيت لحم، وعندما يخلد للنوم يتبخر جزء من فلسطين، وتنقص الرواية حرفاً، وبنقص هذا الحرف تفقد الرواية عنوانها.

من نام بجانب الرعب كي أطمئن أنا، ويطمئن كل من يحملون اسمه..

الى صديقي الوحيد ووالدي الحبيب "نبيل سليمان فارس قبها".

إبني نبيل

ابني نبيل، طفل كهل، يحمل اسمه جده (نبيل) يطل عليه بعجينته الساخنة ولسانه الذكي بجملة من الأسئلة المتمردة ذات المذاق الحار، فيرد عليه سيدو نبيل بهذه الحكاية المجنونة.

غول أزرق ابتلع أرضي ووردتي، وداس على الفراشة التي جاهدت فوقها باستبسال، كان أبي وابني وجسد الفراشة، كان جسد الفراشة وابني وأبي، تجمعهم لحظة من زمن متعب، حتى خُلع الزمن بصوت حمامة بيضاء كانت تصلي نحو القدس.

قبل أن يدخل
الغول إلى المدينة

سيدو نبيل.. ماذا كان قبل ما يدخل الغول إلى المدينة؟

كان هناك مجموعة من شباب البلد -خمسة أشخاص- أعمارهم ما بين الثلاثين والأربعين، قد خرجوا من المدينة في جولتهم اليومية نحو تلك الأحراش البعيدة لجلب قوتهم، وعند ولوجهم في قلب الغابة انكبّوا في جز عنقها بحثاً عن الطعام.

كم كانت الساعة عندما خرجوا إليها؟

الخامسة صباحاً، ولكن لماذا تسأل عن الوقت يا حفيدي؟

لإنني سمعت على لسان أحد المخاتير أنه لم يكن هناك كهرباء في المدينة! فكيف لهم أن يدوروا فيها، ويعاينوا وجهها، والغول ينثر الرعب هناك؟

صحيح.. كان الغول قد قطع الكهرباء عن المكان، ولذلك تحديداً كنا نسرح للعمل في وقت مبكر تحت ضوء الشمس المنشور قبل أن يدنوا هزيع الليل ويعمل على تشويش الرؤيا، حيث كان الغول يراقبنا ويلاحقنا عن طريق جلاوذته وجلاديه.

وهل كان له أتباع؟!

أجل.

من هم يا سيدو؟

كلاب.

كلاب!!

نعم كلاب.. ولماذا أرى الدهشة انداحت في وجهك يا حفيدي نبيل؟

اعتقدت أنهم غيلان من نفس جنسه يا سيدو! أو مسوخ! أو وحوش! أو شياطين! لكن لم يأتي الى خاطري أبداً أن يحفّ الغول نفسه بالكلاب؟! ما الغاية من اتخاذه الكلاب رفقاء له؟

لأن الكلاب لديها عدد كبير من مستقبلات الشم.

أكثر من الإنسان؟

أكثر من الإنسان بكثير.

إلى كم تصل؟

تبلغ قوة شم الكلب من 10 آلاف إلى 100 ألف مرة من حاسة شم الإنسان.

مسافة رقمية هائلة!

أجل.. أحيانا تصل الى 300 مليون مقابل 6 ملايين لدى البشر.

وإلى أي عمق يمكن للكلب شم الروائح؟

٦,١ ميل "حوالي ٢,٦ كيلومتر" في البيئات الريفية، ولكن قد تصل هذه المسافة إلى ١٢ ميلًا "حوالي ١٩ كيلومترًا" إذا كانت الرياح القوية، حيث يمكن للكلب على الأرجح شم رائحة شخصٍ من مسافة ٢٠ كيلومترًا اذا كانت الرياح تجري بشدّة، وليس هذا فحسب، بل إن دماغ الكلب يوجد فيه جزء مخصص لمعالجة الروائح، حيث لديه الإمكانية إلى تصنيف الروائح والتفريق بينها.

مثل ماذا؟

اكتشاف الأمراض -كالسرطان- وغيرها، كشف المخدرات والمتفجرات، البحث عن الحيوانات المفقودة، تتبع الأشخاص والآثار، والأهم من ذلك كله، هو أنها تستطيع معرفة وتمييز الإنسان المتوتر، ففي دراسة أُجريت في جامعة -كوينز بلفاست- بالمملكة المتحدة أنه وعند تعرض البشر للتوتر، يمكن للكلاب اكتشاف ذلك من خلال عينات أنفاسهم وعرقهم المتطاير، والذي يحتوي على مواد كيميائية عضوية تلتقطها وتميزها حاسة الشم للكلاب.

الآن أدركت ما ترمي إليه يا سيدو!

وماذا وأدركت؟

أنه بإمكان الكلب معرفة الإنسان الخائف والمتوتر؟

صحيح.. ولكن ما المهم في ذلك؟

لكي ينقض عليه الكلب دون أي مقاومة أو مواربة، ويكون فريسة سهلة بين فكّيه.

غير صحيح.

إذن.. ما السبب؟

كي يحملوا رائحة خوفه وصوته المرتبك لزعيمهم "الغول"، ليكون الضحية المجهولة التي سيرى من خلالها المدينة.

يعني.. ليأكله؟

ليجنّدهُ.

تقصد.. يتخابر مع الغول ضد أبناء بلده؟!

أجل يا حفيدي.. لذلك لا يجب أن تفوح رائحة الجبن والخوف من أي أحد منّا أمام هذه الكلاب! لكي لا ينتهي الأمر بأحدنا عميلاً لهذا الغول.

كم عددهم يا سيدو؟

١٦٥ كلب.

من نفس الفصيل؟

مختلفون في أشكالهم وألوانهم وأحجامهم وأنواعهم، ولكنهم يقومون بنفس المهمة، ويؤدون نفس الوظيفة وهي "الجاسوسية".

سيدو.. هل كان للغول أهل أو إخوة أو أقراب أو أي كائن غيلاني من فصيل جنس الغيلان؟

تحت سقف هذه السماء الوادعة، لم يكن سوى هذا الغول فقط، والذي كان يتنفس العنصرية، يجوب أرجاء المعمورة كحيوان مصعور، ويقطع شريان الحياة فيها وسط صرخات أخيرة.

كيف يبدوا شكل الغول؟

زئبقي.

لم أفهم؟

هنك أوصاف عديدة تناقلتها الناس حول ماهيته، منهم من نقل لنا أن أشبه بأعور الدجال، قصير، وعظيم الرأس والجسم، وله عين في المنتصف وأخرى مطفيّة؟ ومنهم من شبهه بيأجوج ومأجوج، صغير العين، ذلف الأنف، كأن وجهه المجان المطرقة، لا يتجاوز الشبران؟ ومنهم من قربه للحن والبن، مشوه الخلقة، وأحدب الظهر، تنتشر عليه الحبوب والقروح الجلدية؟ ومنهم من وصفه بالمسوخ، شاهق الحجم وله أذن عملاقة يتغطى بها؟ واخرين قربوه بمصاصين الدماء، له أنياب حادة، سريع، قوي، وله قدرة على الإستشفاء الذاتي؟ ومنهم من صوّره كدراكولا، ذي الشارب الطويل والملابس الفاخرة، يمتلك أظافر حادة وبشرة شاحبة، والإمكانية على التحول إلى خفافيش، أو ذئاب، أو ضباب، ولديه القدرة على السحر والتنويم المغناطيسي؟ ومجموعة مثّلته بشريك، أخضر مقرف، ممتلئ، وأفحج القدمين؟

وحشد طابقوه بإبليس، له ذنب مدبب في رأسه، وجناحين ضخمين يطير بهما، ويحمل شوكة بيده؟ وهناك الكثير من التشبيهات والتخمينات بخصوص ماهيته، ولكن المشترك من كل هذه الوصوف أنه دميم وقبيح، وتنسل من شقوقه رائحة الفولاذ والقيح والدم والعرق والقمامة والنفايات بكل أوجهها.

وهل هذه المقاربات صحيحة؟ أم أنها من وحي الخيال وهوس الناس في لمس حقيقة هذا الغول؟

ابتسم سيدو نبيل من سؤال حفيده "نبيل" حول شكل الغول، وعقّب على ذلك بقوله: "هناك تصويرات عديدة، وأخبار كثيرة تناقلتها الناس حوله كما أخبرتك قبل قليل، منها الصحيح ومنها ما هو خالٍ من الصحّة؟".

لكني على يقين يا سيدو أنه لا يخرج عن أحد هذه الأوصاف، إن لم تكن كلها مجتمعة فيه؟!

ومن أين جئت بهذا القطع؟

الكثير من الناس تداولوا خبره، ومنهم من رسمه.

وأين شاهدت هذه الرسومات؟

شاهدت بعضها في الرسوم المتحركة "Animation" على القنوات الفضائية للأطفال مثل سبيستون، إم بي سي ٣، وبعضها الآخر في الأفلام السينمائية على القنوات الفضائية للأفلام مثل قنوات MBC 2 و MBC Action و MBC Max وMBC Bollywood، وروتانا سينما، وزي أفلام، وON Movies، و Fox Movies، وغيرها من القنوات.

كل هذه القصص هي خرافة وأساطير أصيبت البلد بسببها بلوثة الخوف والخبل والمأسوية!!

إذن.. كيف تبدوا حقيقة ماهيته؟ هل أمسكتها يا سيدو؟

ملامحه كانت ترتسم أحيانا على شكل حمل وديع، له نظرة ثاقبة تتلون كالمها، تختصر لسحرها العصافير أغوار المسافات لتبني عشها فوق كتفه، صوته مثير وساخن، يحمل بيده اليمنى ماخوراً وهميّاً، وباليسرى منجلا حادّا، ويلبس ثوب الناسكين، يلعب به دور الممثل البارع "ميكي ماوس، جوفي، ويني الدبدوب، شيرك، باباي، علاء الدين، سوبر مان، بات مان، آيرون مان، أكوا مان"، وغيرهم من أساطير ديزني ومارفيل ودي سي المستقاة بأدوارهم من هوليوود السينما، ولكن

هذه المرّة في هوليوود الحقيقة والواقع، حيث حوّر شخوصهم من كاريكاتورية الى دموية، مترجماً بأنيابه كل أشكال اللامعقول.

لكن هذه الشخوص الكرتونية هي من رسمت الإبتسامة على وجوهنا! ووضعت طفولتنا في نص البطولة الغير مشروط والخارج عن حدود التقييد.

لأنه فنان محتال!! أحدث ارتجاجاً في النص المحكوم بالدين والعادات والتقاليد عبر هذه الشخصيات الكرتونية التي فتحت خارطة الباردويا والبارنويا، ووضعت منحنى خلخلت فيه النظام العقلي المتوازن، لو سألتك: "ماذا تعرف عن المسلسل الكرتوني السنافر؟".

السنافر هي شخصيّات كرتونية قصيرة القامة، لها أنف كبير وقدمان كبيرتان، لونها أزرق، تلبس القبعات البيضاء، وتعتبر من الأقزام، تعيش في قلعة خضراء نائية في أحد الغابات، وعددهم ٩٩ سنفور، وسنفورة واحدة، ومنهم بابا سنفور الّذي كان بمثابة والدهم جميعاً، يدلّهم للسبيل الصحيح دائماً، وسنفور المفكّر، وسنفور الأكول، وسنفور الرسّام، وسنفور المازح، وسنفور الشّاعر، وسنفور الموسيقي والعازف، وسنفور العبقريّ، وسنفور المغامر، وسنفورالطّفل، وسنفور المغرور والّذي كان يبتعد عنهم لشدّة غروره، وهناك أيضاً سنفورة الجميلة، كل واحد منهم كان يتّصف بصفات مختلفة عن الآخر، وكانت بيوتهم على أشكال الفطر، وكان يلاحقهم شرشبيل المشعوذ الكبير، وهي شخصيّة مختلفة تكنّ للسنافر العداوة، وكان يرافقه قطٌّ أحمر مشاكس وغبي يُدعى هرهور، ودائماً يحاول شرشبيل في كل حلقة اصطياد السنافر بغرض تحويلهم إلى ذهب ينتفع منه، أو لأكلهم، ولكنه في كلّ مرّةٍ يتعثر ولا يستطيع القضاء عليهم، وكانت كل حلقة تتحدث عن موضوع وقصة مختلفة عن التي سبقتها، ولكن الثابت فيها هي العداوة الأزلية التي يكنّها شرشبيل وقطه الغبي هرهور للسنافر.

هل هناك شيء آخر تعلمه عن السنافر؟

أعتقد أن هذا هو عالم السنافر!

قابلني سيدو نبيل بنظرات تمحيصية: "هذا فقط؟".

فأجابه حفيده بسبل منشعبة: "قد يكون أن سنفورة الجميلة كانت تشعر بالحزن الشديد والوحشة، لانها السنفورة الوحيدة التي تعيش في مجتمع ذكوري زاخر بالسنافر من جنس الذكارة في القرية، فكانت تحلم يوما في أن تعثر على سنفورات مثلها خارج أسوار القرية".

هذه القصة التي تعرفها أنت ومعظم أطفال العالم، لكن هل تعلم أن هناك رسائل خفية تلتوي تحت حكاية هذا المجتمع الأزرق البريء؟!

رسائل!! وما هي هذه الرسائل المستترة خلف السنافر؟

في البداية عليك أن تعلم أن الذي اخترع شخصيّة السنافر هو المؤلف والرسام البلجيكي "بيير كوليفورد"، والمشهور باسمه الفني "Peyo" وانتشرت في العالم بسرعة عام ١٩٥٨، وتحوّلت من رسومٍ وهميّة على الورق إلى متحركة على الشاشات عبر أفلام الانيميشن والمسلسلات الكرتونية، ثم إلى شخصيّاتٍ حقيقية يمثلها الناس على المسارح، هذه القبيلة الزرقاء التي ولدت قبل أكثر من ٦٣ عاماً والتي تحوم داخل هذه القرية الصغيرة والسعيدة، الملفوفة بالصخور من كل مكان، والنائية في احدى الغابات البعيدة، أسرت قلوب الصغار والكبار، لكن ما يجب أن تعرفه هو أن هذه الكائنات والتي لا يتجاوز طولها حبة رمان واحدة -أي ما يعادل عشرة سنتيمترات- وتبلغ من العمر مئة عام، جاءت تأسي بالأساطير الأوروبية في القرون الوسطى؟

وماذا تقول الخرافات الأوروبية؟

(تقول أن السنافر كانت تجسد الذنوب، و التي تُعرف أيضاً بإسم الذنوب "الكاردينالية"، وكانت تمثل الخطايا السبع المميتة في الديانة المسيحية، ألا وهي "الشهوة، الغرور، الشراهة، الغضب، الجشع، الحسد، الكسل"، وهي أقسام شرور النفس البشرية المستترة خلف كائنات زرقاء لطيفة ومسالمة، فالسنافر كانت أرواحاً شريرة تتكاثر في أيام اكتمال القمر بالتعاويذ السحرية، فمثلا، بابا سنفور كان الشيطان الذي يمثل رأس كل الذنوب المميتة، ولو لاحظت أنه كان يتميز بارتدائه القبعة الحمراء، واللون الأحمر يرمز الى الغضب والخطر ويؤشر على الدم والشر، وسنفور المغرور والّذي كان يبتعد عن الجميع لشدّة غروره، ويفضل جلوسه أمام المرآة على أن يجلس الى جانب أقرانه من السنافر، وسنفور المفكر الذي كان يفكر بالنيابة عن الجميع، والعبقري الذي يفك مشاكلهم، وسنفور الأكول الذي يحب الطعام أكثر من العالم وما فيه، وسنفور الأخرق وهو سنفور غبي ولا يجيد فعل أي شيء في الحياة، الا أنه غباؤه مضحك نوعا ما، وسنفور الكسول والذي لا يفعل اي شيء سوى النوم، وسنفور الغضبان والذي اشتهر بأنه يكره كل شيء، ومنزعج دائما، ولا يعجبه أحد، وسنفور الفضولي والذي يدحش انفه ويتدخل في شؤون غيره، وسنفورة الجميلة والتي كانت تمثل الشهوة، حيث كان يتذلل لرضاها كل السنافر، ويرغبون في مصاحبتها، أما شرشبيل كان مجرد كاهن صالح وفقير يعيش

في كنيسة اسمها برج الجرس الأسود، تخلت عنه أمه منذ الصغر، وربوه رجال الدين، وعندما نضج أخذ يحارب هذه الارواح الشريرة ويسعى لاصطيادها لينقذ العالم من أفعالها، لكن الرسام البلجيكي بيير كوليفورد عكس القصة بأكملها، فرسم لنا بابا سنفور القائد الحكيم والمدافع الأول عنهم، وأن سنفور المفكر مستشاره الخاص، والأذكى بينهم، والكل ينكب تحت جناحه ليخرجهم من أي مأزق، وسنفورة الجميلة والوحيدة في قريتهم، ابتكرها شرشبيل بغرض التلصص على السنافر وإثارة الغيرة بينهم، ولقد صوّر لنا بيير أنها لطالما أرادت أن تكون سنفورة حقيقية، فقام بابا سنفور بإلقاء تعويذة عليها بدّلت لون شعرها من الأسود إلى الأشقر، وجعلتها محبوبة وطيبة، أما شرشبيل فقد كان ساحراً وشريراً، وكانت مهمته هي التجسس على السنافر ومحاولة خداعهم، يسعى لاصطيادهم لعلة تواجد مادة في أجسامهم تتحول الى ذهب اذا التهمهم، وكان يؤمن أن هذه المادة تتحول الى قوة أسطورية وسحرية، ومع اجتياز هذه المخلوقات الحدود الجغرافية اختلفت مسمياتهم في أقطاب العالم، فمثلا، في فرنسا يسمونهم "شترومف"، وفي بريطانيا ينادونهم "سمارفز"، وفي كوريا يعرفون باسم "سوموبو"، كما واختلف منظور الناس حولها، فبعضهم ينظرون إلى السنافر على أنها رسوم متحركة، وبعضهم يرونهم مجرد ألعاب، وبعضهم راح يعتقد أنهم كائنا حقيقية، ودأب يبحث عنهم على صحن الأرض، وآخرين ظنوا أنهم خرزات وتمائم، وشقّ اعتقد أنهم روابط لأشخاص آخرين، وقلة من كان يعتقد أن فكرة السنافر مسيئة، إلا أن المعظم يجدون المتعة عند مشاهدتهم، حتى الكبار، ويتمنون السكنى في منزل فطري، ومنهم من شيّد منزله على شكل الفطر حقا، كما وأصبح طموح الأطفال أن يلتقوا بأي سنفور ولو على سبيل الصدفة، وأن يتعرفوا عليه، لأنه كائن طيب ومحبوب، ومسالم لا يؤذي، ويحبّ المرح واللعب، ولقد كان هذا نهج مدروس لحكاية السنافر والتي أراد منها المؤلف تصدير القيم الفاضلة للأطفال وللكبار معا، لأن قصة السنافر تحاكي جميع الفئات العمرية الّذين تعلقوا بهذه الكائنات الزرقاء وأحبوها؛ كما أنها تتناسب مع التنوع الثقافي والواسع، والسبب هو اللون الأزرق الذي اختارته زوجة "بيير كوليفورد" حتى يكون لون أجسادهم، فهو يرمز عادة للراحة والهدوء، والثقة، والاستقرار، ويرتبط غالباً في الطبيعة كالسماء والماء، ولذلك صرح مخرج الأفلام المختصة بالرسوم المتحركة، والرسام والكاتب الأمريكي "كيلي أسبوري" الذي أخرج مسلسل السنافر والقرية المفقودة أن اللون الأزرق يجعل الناس يتعلقون بالسنافر، لأنه يصهر الفروقات ويذيب العرقيات من الناحية الإنسانية، كما وقد قال الكاتب والقصصي الفرنسي " فابيان فيلمان" والذي تعاون مع الرسامة "كيراسكويه" في رواية الرسوم المصورة "الظلام الجميل" الحائزة على جوائز

عديدة، أن هذه الكائنات الخيالية الزرقاء كانت أداة قوية للتواصل مع الأطفال، عبر المواضيع السهلة والبسيطة المطروحة في كل حلقة، لكن ما صنعه "بيبو" أقرب ما يكون إلى المعادلات الفيزيائية، فهي تبدو في المظهر بسيطة، ولكنها معقدة في الأحشاء، فالسنافر عبارة عن منظمة زرقاء متنوعة فكرياً، يجد المشاهد نفسه في أحد هذه الشخصيات السنفورية، في نصٍ ميلودراميّا فكاهيّاً وصراع بين الخير والشر، فقد اعتقد الكاتب "جيل دال" أن هناك تفسيرات مختلفة حول شخص شرشبيل مثلا، فمنهم من رآه أنه الباعث لإنهاء الاشتراكية بتحويل السنافر إلى ذهب، ومنهم من اعتقد أنه تجسيدا للرأسمالية كالكاتب السويسري "سيباستيان مينيسترو"، ومنهم من رآه تجسيدا لإسرائيل، مستشهدا بأن شرشبيل على وزن إسرائيل).

شهقة خرجت من صدر نبيل -الحفيد- عندما قفزت الى أذنه كلمة -إسرائل- وكأنه تاه في خطوط الزمن للحظات ثم عاد، وعندما عاد ارتفعت صرخة من قلبه: "إسرائيل!!".

أخذ سيدو نبيل يطل في وجه حفيده نبيل المحتقن، والذي أعاده الى حقبة تراجيدية في التاريخ الفلسطيني، تنفس فيها الفلسطينيين الثانتوفوبيا المبثوثة من حنايا أضلع هذه السنافر المشطوبة سيكولوجيا قبل بضع وسبعون عاماً.

نظر سيدو نبيل نحو أباجور بيته الذي خُلع خوفاً في أكثر من مناسبة على يد هذه السنافر، ثم نهض واتجه اليه، وأخذ ينظر الي تلك الحقبة من بين دفات أباجوره المقهور، فزحفت الى ذاكرته المشجاة الإسرائيلية إزاء الهلوكوست الذي فجره بابا سنفور بالفلسطينيين، ترقرق في عنيه نداوة وقال: "شخصية واحدة أرسلتها العجوز لتثير الفوضى، شرشبيل الذي صنع العنصر الدخيل، وسنفورة التي قلبت عالم الرجال رأسا على عقب، وعبثت في تكوينهم الجيني، فأحبوها جميعاً ولم تسقط في حب أحد!".

فهمتك يا سيدو.. تم تزوير الحقيقة برمتها؟!

هذه الكائنات الزرقاء المسالمة أخرجتها العجوز من قريتها حتى تسللت إلى الوعي الجمعي لدى المشاهد، فدخلت عالم التلفاز، وامتطت صهوة السينيما في نيويورك وباريس، ثم تسللت شواطئ هاواي، الى أن تحولت الى منتجات للترويج لعلامتها التجارية، وامتلكت العجوز بفضلهم سلسلة تجارية طويلة، وأصبحت تدير العالم عبر الهاتف أو من قلب سيارتها وهي تطوف من مكان لآخر لإبرام العقود والاتفاقيات مع الدول، وقضت حياتها الى يومنا هذا بفضلهم

تتنقل بين الطائرات والاجتماعات حتى غزت العالم.

سيدو نبيل.. كنت أسمع طلاب الجامعات من الفرقة الثانية حتى الخريجين يطلقون على أي طالب مستجد لقب -سنفور- من باب المداعبة أو المزاح؛ حيث يصفونهم بالسّنافر لأنّهم في بداية السنة الأولى الجامعية، ولا يعلمون أي شيء بعد، ويطلبون النصيحة والتوجيه في كل خطوة يخطونها من الطلاب الأقدم منهم مرحلة، لكن بعيدا عن كل هذا يا سيدو.. ما قصة هذه العجوز؟

سأجيبك لاحقاً، لكن ماذا تعرف عن المينيونز؟

إنها أفضل الأفلام الجميلة والمضحكة التي شاهدتها، هل طالعتها أنت أيضاً يا سيدو؟!

أجل، لكن أريد أن تخبرني أنت يا حفيدي ماذا تعلم عنها؟

هم مخلوقات صغيرة صفراء أسطوانية الشكل، أو على شكل كبسولة، ولديهم عينان، وأحيانا عين واحدة، لا يملكون سوى ثلاثة أصابع فقط فى كل يد، ولديهم القدرة على تحمل الصقيع والبرد، والعيش فى الفضاء والفراغ لعدم حاجتهم للأكسجين من أجل التنفس، ويرتدي معظمها أزياء زرقاء موحدة، جميعهم من الجنس الذكري، ولا يوجد أي أنثى بينهم، عُرفوا بسلوكهم المضحك، ولغتهم الغير المفهومة.

للعلم يا حفيدي البطل.. انهم يتحدثون بلغة هى خليط من الإنجليزية، الإسبانية، الإيطالية، والفرنسية بالإضافة الى بعض الكلمات الممزوجة من الكورية والروسية، لكن هل هذا ما تعرفه عنهم فقط؟

كلا.. ظهروا في بادئ الأمر في سلسلة أفلام الإنمي " Despicable Me أنا الحقير" في جزء أول وثاني وثالث، حيث كانوا يركضون ويتبعون سيدهم الشرير "غرو" ويساعدونه في مهماته، ثم أنتج فيلم إنمي خاص بهم اسمه "المينيونز Minions"، وكانوا طيلة الوقت يبحثون فيه عن سيد يقودهم ويتبعونه في أي شيء، أو أي عمل يقوم به دون وعي وإدراك.

وهل أدركت المعنى من خلف هذه المخلوقات الصفراء؟

أجل.. إنهم مسليون، لغتهم الغريبة والفريدة والغير مفهومة والتي تُعرف باسم "لغة المينيونز" تبدو عشوائية، ولكنها مضحكة، ويتميزون بالسلوك الطفولي والبريء، بالإضافة إلى حماسهم الدائم، وعملهم المتفاني، وهم مخلصون جدا

لسيدهم، ويساعدونه في اختراع أدواته وفي كل شيء.

هل تعرف قصة المينيونز الحقيقية؟ ومن أين جاءت هذه الكائنات الصفراء والمضحكة؟

كلا؟!

يبدو أنك لم تبصر ما يحاكُ بين السطور يا حفيدي الحبيب، وهذا هو الخطير في المسألة!!

وما الذي تاه عني بين السطور؟!

الطريقة التي ظهرت بها هذه الكائنات الصفراء هي طريقة داروينية!

وكيف هي؟

ظهروا في بداية الزمن، من خلية صفراء واحدة كانت تتربع لوحدها على صحن الكوكب، ثم تطوروا مع مرور الزمن إلى كائنات المينيونز، وتكاثروا، مع العلم أنهم ذكور فقط، ولا يوجد بينهم أنثى!! وهناك فكرتان خطيرتان في جزئية ظهورهم وتكاثرهم.

ما هي الأولى؟

طريقة ظهورهم أشبه بطريقة التطور لعالم التاريخ الطَبيعي والأحيائي والجيولوجي البريطاني تشارلز روبرت داروين (Charles Robert Darwin).

أتقصد.. النظرية التي تقول أن أصل الإنسان قرد؟

ليس بهذه الصورة.

ولكن المينيونز لم يخلقوا من صلب كائن أقل منهم درجة؟ بل جاؤوا من خلية صفراء واحدة، فأين التشابه بينهم وبين ما نثره تشارلز داروين في قلب صفحات التطور؟!

(قبل حوالي ٣,٥ مليار سنة، جاءت الكائنات الحية جلّها عبر خلية واحدة، من خلال تطور معقد وغير واضح، فكانت في البدء خلية واحدة، وبفعل الصدفة وتوفر بعض العوامل الطبيعية، تطورت من كائنات مجهرية بسيطة جدًا (microbes) إلى كائنات متعددة الخلايا في المحيطات منذ حوالي ٢,٥ مليار سنة، والتي يعتقد أنها تطورت من سلالات مائية بسيطة، تلاها ظهور الفقاريات كالأسماك، فكانت باكورة ظهور الحيوانات التي لها عمود فقري في البحر، ثم ظهرت البرمائيات، والتي

تمكنت من الانتقال بين الماء واليابسة، ثم الزواحف، والتي كانت في نفس الحقبة التي ظهرت فيها الديناصورات، وصولاً إلى ظهور الثدييات، وانتهاء بظهور الأوسترالوبيثيكوس "Australopithecus " وهم أشباه البشر، والهومو "Homo" وهي فصيلة من البشر انقرضت، جاؤوا الإثنين من سلف مشترك، وعملية التطور هذه ترتكز على الانتخاب الطبيعي، والذي يعتمد على التغيرات في الحمض النووي "DNA" حيث تتوارث الصفات الأفضل للبقاء والتكاثر).

إذن.. الأوسترالوبيثيكوس "Australopithecus" والهومو "Homo" جاؤوا من سلف مشترك؟

صحيح.

من هم هؤلاء الهومو "Homo"؟

فصيلة من البشر انقرضت، جاء الانسان العاقل (Homo sapiens) منها، تطورت من سبعة أصناف، منها الإنسان الماهر (Homo habilis) ثم الانسان المنتصب (Homo erectus) ثم الانسان العامل (Homo ergaster) انتهاء الى الانسان العاقل Homo sapiens) وهم نحن.

أفهم من ذلك أن النظرية تقول أننا لسنا من ظهر القردة؟

صحيح.. هي تقول باختصار "أن أصل الإنسان حيوان"، وليس كما تناقل أنصار التطور أن أصل الإنسان قرد! وهذه مصيبة أكبر من أختها.

وهل هذا صحيح يا سيدو؟ هل نحن في الأصل قردة أو حيوانات؟ لأنني سمعت ذلك كثيرا من بعض الآباء الذين كانوا يطرحون هذه المسألة، ويتجادلون في أصل الأنسان والحياة والخلق، وقد قفز الى أذني قولهم "إحنا أصلنا قرود"؟

كلا يا حفيدي.. سأسلك جملة من الأسئلة، وأنت ستهتدي الى الجواب لوحدك، اتفقنا؟

اتفقنا.

هل سألت النملة نفسها يوما كيف جاء الكون؟

لا..

هل أبصرت السلحفاة في ذاتها، وتأملت عنقها الطويل، وتساءلت عن خالق ذلك الشاطئ الذي تزحف فيه؟

لا..

هل اكتشف الخنزير النيوترون؟

لا..

هل صك الحمار نظرية الفوتون؟

لا..

هل حاولت القردة فك معادلة رياضية أو بناء أخرى فيزيائية؟

لا..

لذلك لم تسجد الملائكة للشامبنزي يا حفيدي؟! في المقابل، هل شاهدت ولو مرة واحدة حماراً يركب الإنسان؟

لا..

هل شاهدت الخراف تحبس النوع الإنساني في الحظائر وتعلفهم؟

لا..

هل أبصرت القردة ولو بمحض الخطأ، أنها ألقت القبض على الإنسان ووضعته خلف الأقفاص؟

لا..

هل مررت على فأر بالصدفة، يضع البشر فوق طاولة التشريح لإجراء التجارب عليه؟

لا..

(لذلك الإنسان هو الخليفة، وهو سيد هذا الكوكب، ولقد تصرف الله سبحانه في خلقه بيديه الشريفتين من طين، وأسجد له أطهر وأشرف مخلوقته -الملائكة- عليهم السلام، قال تعالى: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا"، وقال سبحانه: "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ"، وقال جل في علاه: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ"، ولقد أثبت العلم أن العناصر في جسم الإنسان تتكون من نفس العناصر الكيميائية الموجودة في التراب "كالكالسيوم، السيليكون، الحديد، وغيرها"، كما أن الإنسان لحظة موته ووضعه في القبر، فإن جسده يتحلل ويرجع إلى التراب، مما يؤشر على أن المادة التي خلق منها جسم الإنسان هي

نفسها مادة الأرض، حتى الأبحاث الجديدة أكدت أن العمليات الأولية لتكوين الحياة، كان الطين له الدور الأساسي فيها، والتي أشارت بدورها الى أن القرآن هو من نطق بحقيقة أن الإنسان خلق من طين، حيث توصل الباحثون إلى أن عملية تكوين الأحماض الأمينية يسرعها الطين لتكوين الحويصلات، إضافة الى أن الطين يعمل على نقل حمض ال "RNA" إلى داخل هذه الحويصلات، كما ان الطين يساهم في تكوين أكياس صغيرة من الدهون والسوائل في الخلية الحية، وهذا كله يؤشر على أن الإنسان أصله من الطين، وليس من ظهر القردة، ولا من تطور الكائنات).

حسناً.. والفكرة الثانية الخطيرة، ما هي؟

المينيونز كلهم ذكور.

صحيح.. ولكن لماذا المينيونز كلهم ذكور؟

(بالنسبة لمبتكر هاته الكائنات الصفراء المسلية، مخرج الرسوم المتحركة "پيير كوفان"، فالجواب في غاية البساطة، حيث أجاب عليه في مجلة " The Wrap" قائلا: " نظرا لمدى حماقتهم وغبائهم، لا يمكنني أن أتخيلهم نساءا"، فهو يرى أن الذكور أغبياء، لكن الإناث أكثر ذكاءا ورزانة من أن يكنَّ في مكان تعمّه المواقف الغبية والساذجة، لكن بالنسبة لي ما زل السؤال عالقاً، فكيف تكاثروا بدون وجود أنثى واحدة على الاقل بينهم؟! السنافر كان بينهم انثى واحدة، لكن المينيونز لا وجود للجنس الآخر بينهم، فكيف تكاثروا؟ وهل هذا يراد منه تصدير مفهوم الشذوذ؟! أم أن الفكرة هي استبعاد وجود الخالق -الله سبحانه- عبر تنحية فكرة الخلق المباشر، والاستعاضة عنها بكون أزلي ومخلوقات خالدة لا تموت؟! حيث أن المينيونز كائنات خالدة كما صورها مبتكرها!؟ الله تعالى أعلى وأعلم.. لكني لمست شيئا من ذلك في هذه الكائنات الخيالية الصفراء!!).

إذن، المينيونز والهومو جاؤوا من نفس الخلية الأولية التي تحدث عنها تشارلز داروين في نظرية التطور؟

صحيح.. وكأن المينيونز اعادة صياغة لنظرية التطور، ولكن لفئة الأطفال، عبر هذه الكائنات الصفراء المسلية لكي يتشربها أطفالنا ويؤمنوا بها، حيث تبدأ حكاية هذه الكائنات الصفراء الخالدة، والتي لا تموت، والتي ابتكرها الرسام والمخرج والكاتب الإسباني "سيرجيو بابلوس"، في صبيحة احدى الحقب الغابرة بخلية صفراء واحدة، تطورت مع مرور الزمن إلى كائنات المينيونز، والذين يجدون انفسهم لوحدهم دون سيد يخدمونه ويقودهم، فيصابون بالحزن والإكتئاب، فتبدأ

رحلتهم حول العالم في البحث، لخدمة أسوأ الأشرار على مر التاريخ، فكانت البداية من دينوصور تى ركس، وحتى نابليون، لكنهم يَخْفِقون في كل مرّة بالاحتفاظ بزعيمهم، حتى عثروا في نهاية مشوارهم على مجرم لئيم وحقير، كان ذائع الصيت في سفالته ورذالته، ورغم تفاهة هذه الكائنات الصفراء وسيدهم الحقير، إلا أنها لاقت حبّاً عظيماً، بل ونجحت سلسلة أفلام الإنمي التي تحكي قصتهم نجاحاً تجارياً ضخما على مستوى عظيم، جعلت من المنتجين لهذه الشخصيات وهذه السلسلة التافهة "Despicable Me" أن ينتجوا سلسلة أتفه منها "Minions"، مهمتهم الوحيدة هي البحث عن أقذر وأحقر الزعماء على مر التاريخ من أجل أن يتبعونه، ومن أجل أن يساعدونه في كل ما يصنعه من سفالة ووضاعة، وهذا هو معنى كلمة المينيونز"Minions"، أي: "مرؤوس"، "خادم"، "زيدي"، "تابع"، "خاضع"، وهذا هو الوجه الحقيقي للمينيونز.. أن يكون الإنسان خادماً تابعاً خاضعاً، وتائه عن ذاته، ومشطور عن المعنى الحقيقي الذي خلق لأجله، ألا وهو أن يكون الخليفة، قال تعالى: "إني جاعل في الأرض خليفة").

((لأول مرة يشعر نبيل -الحفيد- أن أحرفه ترتطم في حلقه ولا تجد مخرجاً، حتى خرجت بسؤال من جده نبيل له: "ماذا تعرف عن سوبر مان؟")).

كائن فضائي جاء من كوكب كريبتون المُدمر، وهو بطل خارق لا يهزم، يمكنه الطيران أسرع من الصوت والضوء معا، والسفر عبر الزمن، ولديه قوة جسمانية عظيمة، حيث يمكنه رفع جبل بيد واحدة، وجسده فولاذي، حيث لا تخترقه الرصاصات، ولا تمزقه القنابل والمدفعيات، يملك صريمة بصرية، حيث يمكنه رؤية جميع الأطياف تقريبًا، تصل إلى الطيف الكهرومغناطيسي، والرؤية الحرارية، والأشعة السينية، والرؤية التلسكوبية أو المجهرية، يرسل من عينيه أشعة حمراء بامكانها تدمير كل شيء، لديه القدرة على التنويم المغناطيسي والتخاطر وقراءة الأفكار وتحريك الأشياء بعقله، ولديه حاسة شم خارقة، كما أنه يستطيع تجميد الأشياء بأنفاسه، يمكنه سماع الأصوات من على بعد آلاف المترات، وقدرته على التحمل عجيبة، تمكنه من تحمل الصقيع، كما أنه لديه قوة التوهج الشمسي، والتي تعادل الشمس التي فوق رؤوسنا، عدا أنه وسيم وصاحب كتلة عضلية متناسقة، ومستوى ذكائه يفوق البشرية جمعاء.

ألا تعتقد أنه أشبه بالإله؟!

لم أفهم؟

قدراته أشبه بقدرات الإله! وكأنه إله مصغر؟

تنهّد نبيل -الحفيد- ثم حدّق بنظرات ضائعة صوب السقف المشقوق: "قد يكون.. لكن لا أجدني مُطّلعاً على أغوار تفاصيل حكاية هذا الكائن الفولاذي، لا أرى هذه التعقيدات والخلافات الصغيرة في هويته، كنت أتأملهُ كلوحة فنية أريد أن ألمسها من زاوية واحدة، وهو أنه بطلي، بطلي الذي استغرقت الكثير وأنا أنظر في صبره وقوته وذكائه وتحمله من أجل مساعدة الأخرين، لماذا هذا المحاولة يا سيدو لخدش بطلي؟

لأنه خدشك يا حبيبي.

ماذا تقصد؟

كدت أن تقتل نفسك بسببه**!!**

ارتسمت الدهشة على أعين نبيل -الحفيد- وانداح في وجهه السؤال: "أنا؟! متى وأين وكيف كان ذلك يا سيدو نبيل؟!".

كنت طفلا صغير.

فاحت رائحة الغضب من الحفيد نبيل: "صغير إلى حدّ تآكل فيه عقلي ولم أعد أتذكر؟!".

اقترب سيدو نبيل من حفيده -نبيل- وضمه الى صدره حتى اضمحل غضبه وتبخر، ثم أرسله بهدوء، وبعيون مبتسمة أرسل هذه الواقعة: "هل تعلم يا حفيدي أنك عندما بلغت السادسة من العمر، كنت تسير الى جانب والدك في سبيل يمتد بمحاذاته احدى الأودية العميقة، فتوقفت هنيهة، وطلبت من والدك أن تطير في الهواء من هذه الطريق الى بطن الوادي؟!".

نبيل -الحفيد- مستنكراً: "أنا!؟ مستحيل أن أفعل ذلك؟ لا يمكن أن أطلب أمراً فيه موتي وهلاكي!؟

للأسف.. لقد طلبت.

معقول! لا أتذكر!

حاولت الإفلات من قبضة يد والدك المحكمة، كنت تشد بكفك من جهة، ووالدك يشد بها من الناحية الأخرى، حتى كادت كفك أن تتمزق، ولكن في النهاية منعك والدك بالإكراه من أن تلقي بنفسك الى الهلاك، ومكثت تبكي لقرابة خمسة دقائق طالباً رحمته في أن يجعلك تقفز من أعلى الوادي**!!**

استدار السؤال حول جسد نبيل -الحفيد- ثم صعد الى ذهنه: "ولماذا أفعل أمراً جنونيّاً كهذا؟"

سوبرمان.

لم أفهم؟ ما علاقة سوبرمان بمحاولة إنتحاري؟

تيمّناً به، كنت مصاباً بلوثة حبه، فأردت أن تقلّده وتطير مثله، فحاولت الإنفكاك من يد والدك لكي تطير من فوق الطريق، وتحلق فوق سماء الوادي؟!

لف اليأس جسد نبيل -الحفيد- عندما مضغ سوبرمان طمأنينته، وعندما أيقن أنه كاد أن ينتحر بسببه، أخذ يهذي قليلا، وينظف ألم سوبرمان من قلبه المنكسر، استمر يكنس به حتى إنتزع روحه من أحشائه، ثم أقبل على حمد الله وشكره أنه ما زال على قيد الحياة، ثم أرسل عينيه نحو سيدو نبيل: "الحمدلله أن والدي كان بصحبتي، الحمد لله أن يديه الحانيتين أمسكت بكفي الغبي ومنعتني من الإنتحار، فلولاه ما كنت على قيد الحياة!".

أجلّ سيدو نبيل النظر في صفحة حفيده نبيل ثم سأله: "هل لاحظت أي عامل يربط السنافر والمينيونز وسوبرمان في بعضهم؟".

مثل ماذا؟

حاول أن تخمن.

أنهم مشهورون مثلا؟

لا..

مسليون لدى الجميع؟

لا..

أبطال؟

لا..

يحبهم الأطفال؟

لا..

أرفع الراية البيضاء.. ما هو المشترك بينهم؟

السنافر والمينيونز وسوبرمان يشتركون باللون الأزرق، ولا أعلم إن كان ذلك مقصود أم لا؟!

وهل هذا اللون الأزرق كان سبباً في تغيير تكويننا الثقافي من خلال هذه الوجوه الكرتونية التي أحببناها وأرهقتنا فكرياً؟

أكره اللون الأزرق.

على العكس! اللون الأزرق مريح للنفس الإنسانية، حتى أنه يسمى ب "لون الروح" لأنه يُعطي النفس مشاعر الاسترخاء وتقليل القلق، كما أنه يشير الى أجمل موجودات الطبيعة، كالبحار، والسماء، ويرمز لمعاني وقيم سامية، كالسلام والهدوء، هكذا تعلمنا في المدرسة؟!

حتى جاء اليوم وارتداه هذا الغول الهمجي، فأصبح يثير القلق، ويفوّر المشاعر، ويساعد على حدوث أمراض نفسية، وأزمة قلبية، وسكتة دماغيية، وتحول الى رمز للمجازر الإنسانية والابادات الجماعية.

عبر ممر ضيق في عقل نبيل -الحفيد- خرجت هذه الكلمات بصوت خافت: "أجل يا سيدو.. للأسف الشديد، لقد مزق هذا الغول المعنى الجميل للون الأزرق، ولا أخفيك أني كنت راغباً بحبه، وهو كان راغباً بموتي! مفارقة عجيبة يا سيدو، أليس كذلك؟ لابد أن هذا الغول يتقصّد موتنا في رواياته وأعماله، لكن، لماذا يرغب في اجتراح جرائمه الرمادية التي لا دافع لها ضد الأطفال؟ ما ذنب الأطفال والرضّع والخدّج والأجنة في بطون أمهاتهم لكي يمزقهم هذا الغول؟".

لأنهم المستقبل الذي يخشاه.

كيف ليد لا تقوى على حمل نفسها أن تشكل خطرا في المستقبل لغول كاسر ومتوحش؟

لأن هذه الأيادي الحانية ستكون هي السبب في سوءة وجه هذا الغول، وتحقيق وعد الله -تبارك وتعالى- لنا.

متى؟

عند عودتنا الى الله سبحانه، قال تعالى: "عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (الاية ٨ من سورة الإسراء).

وعد الله سبحانه ناجز، ووعد هذا الغول في مهبات الريح، كم هو مجنون عندما

قرر خوض حربه على النص الإلهي؟

إنه لا عقلاني، ولا تصطبغ العقلانية فيه، وكيف تصطبغ فيه وهو حيوان مادي بربري.

ويبدوا أنه كاذب أيضاً، ولا يقول الحقيقة؟

بوهيمي دجّال، يُغرّد خارج السرب بتحويرات سينيمائيّة مجنونة، غريب الأطوار، همجي، لا أخلاقي، يتعمد قتل الأطفال والناس بغرض التطهير العرقي وتفريغ الأرض من سكانها الأصليين.

إذن، هذا دافعه من الأساس.. التطهير العرقي!؟

وقتل السردية، لذلك عليكم الإحتراس من أدبه الغث وشعره الملغوم، والتي تشيع فيها الفوضى والعبثيّة.

يخوض روايته الرخيصة تحت عنوان قتل الأطفال! لينشر الرعب في أوساطنا ومجتمعنا.

صحيح.. هل أنت خائف؟ وهل تريد أن أتوقف عن سرد الحكاية؟

لا.. ولن يرهبني هذا الغول.

هذا هو حفيدي البطل.

هل يمكنني أن أطلب أمراً؟

تفضل يا بطل.

أتسمح لي بدقيقة يا سيدو.. أريد الذهاب الى الحمام؟

طهور يا حبيبي.

أثناء ذلك جلس سيدو نبيل خلف جدار بيته المهدّم، حيث كانت البلد رخاميّة القسمات، غنّاءة الطرقات، كل زاوية فيها تنبض بالحياة والتاريخ.

هنا عقدت العصافير صداقة مع الحدائق والكروم الخضراء، وهناك برم الأطفال صحبة مع مقاعد المدرسة وجدرنها، وهنا كان يربط جارنا حماره، وهناك كنا نلعب كرة القدم، وعلى عتبة ذلك الدكان كان يجتمع المخاتير، ثم يتجه المُسلِمون الى مساجدهم يرتّلون القرآن، وينقطع النّصارى إلى كنائسهم يقرؤون الإنجيل، وينكب

اليهود إلى كُنُسهم يتلون التّوراة، حتى انطفأت البلدة بأكملها، ودفن أبطالها، وذاب في فجاج بطنه ناسها.

كان سيدو نبيل ينظر بهوادة نحو السماء عاقدا يديه خلف ظهره، فشعر بالإحتقان عندما زحفت الذكريات الى رأسه، وترقرق في عنيه نداوة، وبعد مضي عدة دقائق عاد نبيل -الحفيد- وهو ينظر الى جدّه: "ما بك يا سيدو؟"

في فصل الشتاء تموت الازهار يا حفيدي، لكنها في فصل الربيع تعود للحياة!! وسنعيد الحياة مرة أخرى لهذه البلدة.

ان شاء الله.. هل أكملت لي الحكاية يا سيدو؟

أي جزء فيها؟

شباب البلد! الذين خرجوا لجلب قوتهم؟

أها.. انتبه أحدهم الى أن هناك يد إنسان مشوهة على سطح إحدى الصخور، فأصابه القلق ولم يخبر فريقه، وأكملوا سيرهم، وعلى بُعد عدة أمتار عثروا على بطن طفل مبقور تحت احدى الأشجار، لينتشر الخوف في كل خلية بأجسادهم.

طفل مبقور البطن؟!

صحيح.. هل انتابك الخوف؟

لا.. لست خائفاً! ولكن أحرقني المشهد عنما تخيلته؟

أخبرني الحقيقة.. إذا نثر الخوف ثيابه عليك، ولا ترغب بسماع تفاصيل الحكاية فسأتوقف؟!

على العكس.. أرغب في أن أعرف شكل النهاية لهذه الحكاية.

لا زلنا على شاطئ هذه الحكاية! فلا تستعجل.

كلي آذان صاغية.

عدني أن تخبرني بالتوقف عندما تشعر أنك لست بصدد الاستمرار في الاستماع للحكاية تحت أي سبب كان؟

حاضر يا سيدو.. أعدك.

اتفقنا.

حسنا.. ماذا جرى؟

حاول الشبان الاسراع في الخروج من هذه الغابة الى اقرب مغفر للشرطة، وبالفعل، أطلقوا أقدامهم لفيء موت مؤجل حتى وصلوا أحد المغافر، وكان ببلدة قريبة لبلدتنا، وأبلغوهم بما شاهدوا، وأدلوا بشهاداتهم، فقامت الشرطة بدورها في الخروج الى الغابة للتحري والتقصي والبحث، إلى أن بلغوا موقع الجرم، وتأكدوا من شهادة شباب بلدتنا، ليشرعوا في البحث عن الجاني، ومن بعدها بالتعميم في كل الاذاعات الراديوية بوجود جثة مقطعة في الغابة، وأن القاتل مازال حراً يسرح في المنطقة، والواجب توخي الحذر، وعدم الخروج ليلاً بالتحديد الا إن لزم الأمر، وعلى أن يكون هذا الخروج على شكل جماعات.

سيدو.. أخبرنا المعلم أن الجماعة الطلابية تهدف الى أشياء كثيرة، كان منها مواجهة الخطر في الخارج أثناء عودتنا الى بيوتنا، فإذا أصيب أحدنا بمكروه، بلّغ الاخرين أهل هذا الطالب بمصاب ابنهم.

صحيح.

هل توصل الشرطة الى شيء؟

رسمت الشرطة فرضيات عديدة للوصول الى هوية القاتل، ولكن عبثاً تحاول، فاضطرت الى نشر تعميم كبير في الصحف والجرائد والمجلات والقنوات حول هذا القاتل، وصرفت مكافئة مالية كبيرة لمن يدلي بمعلومة واحدة توصلهم الى هوية هذا القاتل.

وهل وصل أي أحد اليه؟

قبل أن أجيبك على هذا السؤال، كان هناك سؤال اخر يطوف في بال كل فرد من أفراد الشرطة!

وما هو؟

كانت الشرطة تتسائل: "هل كان القاتل يقتل ضحاياه بدافع المال؟ الشهرة؟ لفت الانتباه؟ وما الغرض من وراء ارتكاب جريمة في طفل لا حول له ولا قوة؟".

وهل هناك جرائم أخرى؟

الكثير الكثير.

أخبرني بواحدة أخرى.

في احدى المهرجانات التي كانت تقام في البلدة المجاورة لنا، استيقظ احد الشبان متأخراً، فلبس هندامه على وجه السرعة، وأطلق قدماه للريح كي ينضم الى هذه الحفلة مع أصدقائه، وعندما عاد والده الى المنزل قرابة الساعة العاشرة ليلا، سأل زوجته" "أين أحمد؟"، فقالت له: "ما زال في المهرجان"، فرد عليها زوجها: "المهرجان ينتهي الساعة السابعة، لابد أن يكون أحمد في المنزل من ساعتين؟!"، فقالت له زوجته: "ربما ذهب ليتسكع مع أصحابه بعد انتهاء المهرجان، فهو عادة ما يفعل ذلك"، فرد زوجها: "ربما"، لكن الزوج لم يكن يشعر بالراحة، وكان يعتقد أن هناك ثمة خطب ما، أخذ يسوح في المنزل جيئة وذهاباً حتى أشّرت الساعة نحو الثانية عشرة ليلاً، ولم يحضر أحمد الى المنزل بعد، فراح يستنجد بجاره في الخروج برفقته بحثا عن ولده.

لبى النداء يوسف، وإنطلق الإثنان يبحثان عن أحمد، حتى انتهوا الى المهرجان، ولم يكن أي شخص في الجوار، بحثوا في كل زاوية بالمهرجان حتى الساعة ١ ليلا، لكن ما من أحد في الأرجاء، جلس والد أحمد في احدى الزوايا وظهره مسنود للجدار من شدة التعب، دفن وجهه في راحتيه، ودموعه تنساب بصمت، ثم أخذ يتمتم بأحرف غير واضحة، وكأنه يناجي ظلا لا يسمعه.

الليل قد اشتد سواده، والبرد يتسلل من كل مكان، حتى حضر يوسف، وجثى بجانبه، وأمسك بيد والد أحمد المغطاة بالدموع، وطلب منه بنبرة قوية أن يوزعوا أنفسهم كي يغطوا مساحة أكبر في البحث، انطلق والد أحمد أقصى يمين البلدة، وجاره يوسف الناحية الأخرى، وعند البحث أنهك الحزن والد أحمد، فجلس على حفة بئر البلدة الذي يستخرج منه الناس الماء، فوجه مصباحه في فم البئر، مد برقبته، ليصدم بأحمد ملقاً في جوف هذا البئر، فراح يصرخ، فسمعه يوسف، وركض نحوه، بصعوبة حرك شفتيه، وبصوت بالكاد أن يسمع أخبر جاره بمكان ابنه أحمد، والذي صدم بدوره، فاتصل بالشرطة يتوسلهم الإسراع في إنقاذ احمد، فحضرت الشرطة على الفور، واستخرجوا جثة أحمد من البئر، ولكن تبين أنه فارق الحياة منذ بضع ساعات، فباشرت بتسليم الجثة الى الطب الشرعي لإجراء الفحوصات الطبية على جثة أحمد، والتحقيق في أسباب وفاته.

وماذا قال الطب الشرعي؟

لاحظ بدوره أن أحمد قد تعرض للتعنيف قبل القائه في البئر، حيث كان هناك كدمات على ظهره، وبعض الجروح المنشرة في جسده، أما جمجمته فكانت مكسورة من الخلف، وعند استلام الشرطة التقرير شرعت في البحث عن أي أدلة

مادية في المكان، لينتهوا بعد رسم السيناريوهات وتقليص الفجوة إلى أن القاتل سحب أحمد من ظهره الى غرفة مهجورة، ثم قتله، وكان ذلك باستعمال مطرقة حديدية ضربه بها على مؤخرة رأسه، وعند البحث في مسرح الجريمة وجدوا المطرقة ملقاة في حقل زراعي بالجوار.

وهل وجدوا أي أثر يوضح هوية القاتل؟

عندما شرعت الشرطة في التحقيق مع بعض أهل البلدة الذين حضروا المهرجان، طلبت منهم جميعا كتابة تقارير وافية بكل ما فعلوه في هذا اليوم، حتى لو دخلوا الى الحمام، وأن تكون هذه التقارير المكتوبة على انفراد وبشكل منفصل.

وهل توصلوا لشيء؟

كانت التقارير كلها تشبه بعضها، حيث كانت تتمحور حول برنامج المهرجان وفعالياته، الا تقريراً واحداً.

وماذا كتب فيه؟

كتب فيه أنه شاهد كائناً ضخماً في الجوار يقف جهة البئر، وكان ذلك أثناء عودته متأخرا الى منزله.

وهل عرفه؟

للأسف.. لم يتمكن من مشاهدة وجهه أو ملامحه أو حتى أي دليل يقوده الى معرفة هويته، وسجلت القضية ضد مجهول.

ساد الصمت لحظة، ثم أخذ نبيل -الحفيد- يتلوّى عندما قيّدت الجريمة ضد مجهول، واستدار الغموض فيه حتى اختلطت عليه الأمور: "ومن هذا الكائن الضخم يا سيدو؟ وهل ستنكشف معالم القصة لاحقاً وتفتح الأبواب المغلقة لنعرف هوية هذا الكائن الغامض؟".

سنرى عمّا قريب.

سيدو نبيل.. أخبرني بواحدة أخرى.

إليك بقصة مختلفة.

هاتها.

في احدى البلدات وصلت مكالمة هاتفية لجهاز الشرطة، فاستقبلها أحدهم، وكانت

رسالة اعتراف وتهديد بنفس الوقت.

إعتراف وتهديد معاً!؟

أجل.

ما نص هتين الرسالتين؟

(قال الجاني: "أنا اسمي خليل، لقد قتلت مازن لأنه اغتصب ابنتي، وإن تمت ملاحقتي من قبل أي عنصر من عناصر الشرطة فسأقتله أيضاً، لقد أخذت حقي وانتهت القصة الى هنا"، وأغلق خليل سماعة الهاتف وسط صمت مسجّى لدى أفراد الشرطة).

وهل لاحقته الشرطة أم لا؟

شعرت الشرطة بالإحتقان، وبلغ الحنق منها مبلغاً لم يصله من قبل، وأخذ صدرها يغلي ويغلي ويغلي حتى انفجر ونزل كالبرق على كل زاوية في البلدة بحثاً عن هذا القاتل الذي هدّد جهازالشرطة، اشتركت المباحث مع المخابرات لتقفي أثر هذا القاتل، انطلقوا لتمشيط المنطقة التي صدرت منها المكالمة، واتجهوا صوب احدى المنازل والذي كان ضمن النطاق، طرقوا الباب، لكن ما من مجيب، فاضطروا الى خلع باب المنزل، وتحركوا في البحث داخله الى أن وجدوا رجل مسن يبلغ من العمر -سبعون ربيعاً- مطعون في صدره عدّة طعنات -ما يقارب الخمسة طعنات- وكان غراقاً في دمائه، فتحسسوا نبضه ليجدوا أنه قد فارق الحياة، ولكن المشكلة لم تتوقف هنا.

بملامح منتصبة رد نبيل الحفيد: "لا أشك في هوية القاتل، ولكن أعتقد أن خليل أقدم على مصيبة أخرى؟

عندما بدأت الشرطة بالتحري حول هوية القاتل، أفاد أحد العيان أنه شاهد كائناً ضخماً يطرق باب منزل هذا المسن، ثم استقبله، وأدخله الى منزله، ولكنه لا يعلم ماذا جرى بعدها.

خرجت الكلمات حائرة على لسان نبيل الحفيد: "كنت أظنه خليل؟! خابت توقعاتي! ماذا قالت الشرطة؟".

(وجّه ضابط الشرطي أسئلة لهذا الشخص: "ألا تعلم في أي ساعة دق باب منزل المسن؟"

الشاهد: "الساعة العاشرة مساء تقريبا".

الشرطي: "هل كان بصحبته أحد؟"

الشاهد: "لا".

الشرطي: "هل كان يحمل بجعبته أي آلة حادة".

الشاهد: "مثل ماذا؟".

الشرطي: "سكين مثلاً"

الشاهد: "لم أنتبه.. فقد كان الظلام يحجب الرؤيا".

الشرطي: "هل رأيت هذا الكائن يخرج من منزل جارك؟".

الشاهد: "كلا.. لم أشاهده يخرج".

الشرطي: "هل سمعت أي نداء أو استغاثات أو صيحات أو حتى طرق؟".

الشاهد: "لا.. ولكن لماذا كل هذه الأسئلة؟".

الشرطي: "جارك المسن قد قتل! وتم طعنه ما يقارب الخمسة طعنات في صدره حتى فارق الحياة".

أخذ الشاهد يتحسس رأسه، ثم انخلعت من حجرته آهة حزينة: "لقد أقمت سنين طويلة بين حزنه وفرحه، ولم أرى منه سوى قلب الأطفال، لا أصدق أنه قتل! لا حول ولا قوة الا بالله".

الشرطي: "أي معلومة تفتح النوافذ لكي نستدل على هوية هذا المجرم نتمنى أن تخبرنا بها؟".

الشاهد: "أي معلومات طازجة سأقدمها فورا، لكن هذا كل ما لدي في الوقت الحالي صدقاً، فقد ذهبت الى النوم مباشرة عندما دخل هذا القاتل الى منزل جارنا".

الشرطي: "خذ رقمي.. وإذا زارتك أي معلومة، أو قفزت الى رأسك أخبرني لو سمحت".

الشاعد: "سأفعل ذلك بالتأكيد"

الشرطي: "سنفعل ما بوسعنا".

ثم انصرفت الشرطة، وقيّدت الجريمة ضد مجهول).

بأعين مقهورة، وفم مفتوح، تطايرت من فم نبيل -الحفيد- هذه الكلمات: "سأظل أحس بثقل غريب في رأسي حتى يصبح هذا المجهول معلوم!!".

لم يكن أي كاميرات تسجيل في الحي.

عجباً!! وهل سأحترق بهذه النهاية؟

هز رأسه سيدو نبيل بالاستنكار، وبلفيف من الكمات أجاب: ((لم تنتهي القصة بعد.. في اليوم التالي، وعند حلول المغرب رن جرس احدى المنازل في نفس الحي الذي قُتل فيه هذا المُسن، ففتحت الباب طفلة صغيرة تبلغ من العمر عشرة أعوام، لتجد أمامها كائنا ضخما يتخفى بزي بابا نويل، أو سانتا كلوز -كما يسمونه وينادونه- حيث كان يرتدي بنطال وستره يطغى عليها اللون الأحمر وتنتهي بأطراف وبريّة بيضاء، ويضع على رأسه قلنسوة حمراء تنتهي بفرو أبيض، ويغطي وجهه بلحية ناصعة البياض تصل الى عينيه، ولم يكن يظهر من ملامح وجهه سوى العينين، وكان يحمل في يده اليمنى بالونات حمراء، وفي اليسرى كيس مليئ بالألعاب والهدايا، ففرحت الطفلة بقدومه ظانة أنه سيقدم لها هذه الألعاب والهدايا، ولكن كانت المفاجئة العصيبة أن سانتا كلوز بعد أن قدّم البالونات والشوكولاتة للطفلة سحب مسدسه من خلف ظهره، ورفعه في وجه هذه الطفلة، وأفرغ الرصاصات في جسدها، لتسقط ميتة على الفور، ثم لاذ بالفرار، عندما سمعت الأم إطلاق الرصاص على عتبة بيتها، ركضة مسرعة لتجد طفلتها مقتولة عند مدخل المنزل، فنخّت على ركبتيها، وأخذت تلطم، وتهذي بعبارات غير مترابطة وغير مفهومة وهي تنوح، ثم أخذت تحبو نحو محمولها واتصلت بالشرطة وأبلغتهم بالحادثة، لبت الشرطة النداء على الفور، وشرعت في البحث في تفاصيل الجريمة، لكن دون جدوى، فلا أدلة ولا بصمات، مِما أدى الى تسجيل القضية ضد مجهول، وهنا أخذت كتل الخوف تتهاوى على سكان البلدة، وتنطلق الأسئلة بلا أجوبة: "لماذا قُتل هذا المسن دون غيره؟ ولماذا أطلق هذا المجهول الرصاصة على هذه الطفلة تحديداً؟ ومن هو هذا القاتل الغامض؟ والى متى سيتمر طليقاً دون أن تصل الشرطة الى خيط يدلهم عليه؟ وإلى متى سيبقى الخوف يعشعش في بلدتنا وعلى أطفالنا وأنفسنا؟"، مرت السنوات والجرائم لازالت لغزا محيراً ومعقداً في هذه البلدة، ومطاردة هذا القاتل الضخم من طرف الشرطة استمرت لسنوات طويلة في هذه البلدة لعدم توفر الأدلة المادية والعينية الكافية، وفي احد الأيام وصل خبر لهذه البلدة أن هناك شرطي في البلدة المحاذية لهم قد تعرض للقتل أثناء اشتباهه في أحد المركبات، حيث دخله الشك أنها ليست من المركبات التي تخص أهل بلده، فهو يعرفها جيدا، ويعرف أهل بلده، وكانت هذه المركبة تركن عند احدى زقازيق البلدة في ليلة داكنة، وعندما شاهد هذا

الغريب مركبة الشرطي تتجه نحوه تحرك مسرعا، فلحق به الشرطي، وحاول أن يطلق مصباح مركبته العالي كي يشاهد عدد الأشخاص الذين يستقلون هذه المركبة، وليسجل أيضا النمرة الخاصة بها، ولكن المركبة انطلقت كالريح، ليتأكد الشرطي أن هناك خطب ما، فبدأ يطاردها، أثناء المطاردة كسرت المركبة اشارة المرور، وصعدت فوق بعض الأرصفة، حتى حاصرها الشرطي عند طريق في اتجاه واحد، فتوقف هذا الغريب بمركبته، ارتجل الشرطي وأخذ يتجه نحو هذه المركبة ببطء وحذر شديد، وطلب من صاحب المركبة أن يترجل، وعندما نزل كان بصورة عملاقة، يلبس بنطالا أسوداً من نوعية الكتان، وقميص أسود، يضع على رأسه قناع أسود أيضا، لكنه لم يكن يشبه في هيئته الجنس البشري، ولم يكن الشرطي ليستطيع أن يميزه بسبب القناع، لكن بدا أنه برأس كبير جدّاً وغير متناسق، أذنيه طويلتان الى الأسفل، شعره مجعد نتن ينسدل على كتفيه، مخالبه مدببه، لون جلده البارز من أسفل بنطاله يميل الى الزرقة، وكانت تنبعث من جسده رائحة كريهة، قال الشرطي بفم مرتبك: "من أنت؟ وماذا تفعل في هذه الساعة في بلدتنا؟".

رد الغريب: "تهت في طريقي، فركنت جانباً بمحاذاة الرصيف لأني لا أعرف شيئا في هذه البلدة؟".

الشرطي: "ولماذا فررت مني إذن؟ كان بإمكانك أن تسألني!".

الغريب ببرود: "ظننت أنك ستلقي القبض علي؟".

الشرطي بتعجب: "ولماذا أفترضت ذلك؟! هل أنت تحت تأثير المخدرات والمسكرات مثلا!".

الغريب بهدوء: "لا".

الشرطي بتعجب: "هل سرقت شيئاً مثلا؟".

الغريب بهدوء أكثر: " لا لا طبعاً".

الشرطي: "هل ارتكبت أي سوء يجعلني ألقي القبض عليك؟".

الغريب بهدوء أكثر وأكثر: "بالتأكيد لم أفعل أي شيء فيه اساءة أو ضرر لأيّ كان".

الشرطي: "هل يمكنك أن تخلع القناع عن وجهك؟".

الغريب يلتهم هدوئه: "لا أستطيع".

الشرطي: "لماذا؟".

الغريب يلتهم هدوئه أكثر: "أملك وجهاً بشعاً ومشوهاً ودميم".

الشرطي: "لا عليك.. فقد انزع عنك القناع".

الغريب يلتهم هدوئه أكثر وأكثر: "لا أنصحك".

الشرطي: "لماذا؟".

الغريب فاقدا اتزانه: "لأنك ستلوذ بالفرار إن رأيت وجهي".

الشرطي: "ولماذا أشرد منك؟ ألست بشراً مثل كل البشر؟".

الغريب بعين منتصبة وأنف ممدود: "أشعر بدقات قلبك تتسارع خوفاً".

الشرطي بمعالم وجهه يحاول أن يظهر بثقة مصطنعة: "ولماذا أخشاك!".

الغريب ولعابه يسيل: "لأنني لست بشراً".

كانت تنبعث رائحة القلق في نفس الشرطي أكثر فأكثر، حيث كانت اجابات هذا الغريب غير متسقة مع هروبه! وكان فراره بمثابة ثغرة وجد فيها الشرطي نقطة لحسم برود هذا الكائن الغريب والمخيف، بالإضافة الى لفائف جسده ولعابه المتدلي ولونه المريب، فطلب منه تفتيش المركبة، ففتح الغريب الباب الأمامي من جهة السائق، وبنظرات فاحصة أخذ الشرطي يفتش في قلب صالون المركبة، ولكنه لم يجد سوى زجاجة خمر صغيرة الحجم، فسأل الغريب بلطف أن يفتح الصندوق الخلفي للمركبة، فتلفت هذا الغريب حوله، ثم توجه للشرطي بسؤال: "ضروري، لقد تأخرت في العودة الى المنزل؟".

الشرطي: "أجل، واعذرني، ولكن يجب أن أقوم بعملي".

الغريب بامتعاض: "حسنا"، وفتح الصندوق، ليتفاجأ الشرطي بوجود شاكوش، سكين كبيرة، صاعق كهرباء، حبل، أصفاد، باروكة شعر شقراء، وصندوق أسود صغير، فطلب الشرطي بحذر من هذا الغريب أن يفتح الصندوق الأسود، ففتحه وكان في قلبه قناع سانتا كلوز! فسأل الشرطي الغريب باحتراس: "ما هي دوافعك لجلب كل هذه المواد والأدوات الحادة والخطيرة؟".

الغريب: "للإصطياد".

الشرطي وكانت حادثة قتل الطفلة الصغيرة -ذات العشرة سنوات- والتي قتلها سانتا

كلوز في البلدة المجاورة تزحف الى رأسه: "أطلب منك رفع يديك خلف رأسك فأنت رهن الإعتقال".

الغريب بهدوء: "وما سبب اعتقالي؟".

الشرطي: "الإشتباه في قتلك لتلك الطفلة في البلدة المجاورة، وحيازتك على أدوات تستخدم للقتل والذبح".

الغريب: "ولكنك نسيت أمراً".

الشرطي: "ما هو؟".

بحركة سريعة سحب هذا الغريب من خلف بنطاله المسدس، وأفرغ الرصاصات في جسد هذا الشرطي، ثم ولّى مدبراً.

بعد قليل من تلاشي صوت الرصاص وفرار الغريب، أخبر أهل الحي الشرطة بوجود جثة لزميل لهم ملقاة على جنبات الطريق، فهرعت الى المكان، ونقلت جثة زميلهم المقتول الى دائرة الطب العدلي، والتي أخذت بدورها جمع العينات والأدلة لتحليلها في المختبر، وتوضيح طريقة الوفاة، ومحاولة مد يد العون لمعرفة هوية القاتل، ولكن دون جدوى، فأعلنت الشرطة حالة الإستنفار، وحذرت من وجود قاتل طليق، يجوب البلدان ويقتل النساء والصبيان، الشرطة قامت بتمشيط المدينة بالكامل، لم يجدوا أي جزء من بصمة القاتل في المختبر عندما عرضوها لاشعه فوق بنفسجية، ولم يستطيعو تحديد هوية القاتل في المختبر، وسجلت القضية ضد مجهول)).

أطلق نبيل -الحفيد- لهاثا مشتعلا: " الى متى سيطارد الشر البلاد دون معرفة هوية هذا الغريب؟ وهل كانت سكينه الشاردة تقتل بدافع السرقة؟ أم لمرض نفسي ولعلة عقلية، أم لأسباب أخرى؟".

أجاب سيدو نبيل: "لم يكن يتعمد هذا القاتل القتل بدافع الشهرة أو جذب الانتباه، بل فقط للانتقام من الجنس البشري، حيث كان يطلب فناء النوع الانساني من الكوكب بأسره".

هل حقا أن هذا الغريب لم يكن بشريّاُ؟

لا يا حفيدي.

وماذا كان اذن؟

سأخبرك في هذه القصة، ولكن علي أصلي أولاً.

الغول في المدينة

أسرع سيدو نبيل للوضوء، فلحقته، وتوضأت مثله، ثم عمد الى الصالة وفرش سجادة الصلاة، فتبعته، ووقفت بمحاذاته الى جهته اليمنى، ثم أقام الصلاة، وكبّر ودخل في الصلاة، فصليت خلفه، حتى انتهينا من أداء الصلاة، بقي جالسا لوهلة يتلوا أذكاره ويدعوا، ثم نفث في يديه ومسح رأسه وجسده، والتفت الي، ومسح رأسي وجسدي، ثم نهض سيدو، فنهضت خلفه وأنا أدوّر حكاية سيدو في رأسي، فتوارد الى ذهني الغول، أنه قد يكون القاتل الخفي خلف كل هذه الجرائم، فسألت جدي في محاولة لتخمين ماهية هذا المجرم المتنكر: "سيدو.. الغول هو القاتل! أليس كذلك؟".

فأشار سيدو براحته نحو باب المنزل ثم اتجه نحوه، ففهمت أنه علي اللحاق به، فلحقته، توقف عند عتبة المنزل، وأرسل نظره الى السماء وهو يتأوه، وكأنه غاب فيها، ثم عاد وقال لي: "في ليلة باردة وأثناء ما خلدت بلدتنا للنوم شعرت بغصة في صدري، ولم أستطع النوم، فنظرت الى الشارع حيث كانت الطرقات شبه خالية من الناس، ركبت الطريق متجها نحو احدى المدن المجاورة كي أنزع الأحمال عن صدري، وكانت تبعد عنا ٨٣ كم، فيها جامع كبير، ومسجد مغربي، وكنيسة أرثوذكسية، ومقام لنبي، تقف على تربتها أشجار الزيتون والليمون شامخة، يدها دافئة وقبضتها قويّة، أهلها أهل إيمان وصبر، ويُعرفون بكرمهم وحفاوة تلقّيهم للضيف والغريب، وكانت هذه المدينة لا تنام، الناس فيها صباحا ومساءً قيام، لأنها كانت على شفا شاطئ البحر، كان أهلها يتوزعون حول ضفافه، يرمون أثقال الحياة في قلبه، ويستذكرون فصولا تتعاقب، فيموتون بين أمواجه، ثم تلدهم من جديد، ولما دخلتها فجعت بموتها فقد كانت كالمقبرة، صمت ثقيل وطويل، جثث منشورة فوق الأرصفة، وصوت يتردد من جوفها كالزمجرة، وكان من الصعب علي أن أتكهّن مصدر هذا الصوت، والجثث المنهكة من الموت، وعلى حين غرة سمعت وقع خطوات مبعثرة، تعبر في كل مفترقات المدينة، سيل جارف من الوجوه المكفهرة، تعبر فوق جثة طفل مقصوفة، ورأس امرأة محروق، وجريح تسعفه الممرضة، حاولت أن أتحدث مع أي منهم، أو أن أعترض طريقهم بسؤال، إلا أنها كانت تركض مسرعة، عكس اتجاه الصوت، اجتهدت أن أتمالك نفسي، لكن كثرة الجثث أفقدتني السيطرة، حتى اصطدمت بصرخة المجهول، عملاق ضخم لم يكن من بني البشر، وإنما كان غول".

بكلمات تحمل حمولات السعادة قال نبيل -الحفيد- فرحاً: "لقد أصبت في تخميني إذن، لقد كان الغول هو الذي قتل المسن والطفلة وكل قضية سجلت باسم مجهول".

رد سيدو نبيل على حفيده نبيل، وكانت تتجلى فكرة هبوطه الى المدينة حينها، بعد أن ردم الغول حقيقة وجودها من وجودها الحقيقي الذي لا يفنى: "حصد في منجله أكثر من ٦٠ ألف روح، وأكثر من ٢٠٠ ألف جريح ومصاب، وأكثر من ٥٠ ألف مفقودين، لا يوجد بقعة ما بين قدم هذه المدينة وحتى رأسها إلا وكانت تتساقط فيها أجزاء طفل، وتنكب فيها مشاعر إمرأة، وتزحف فيها ذاكرة رجل، رأيت قافية من دمائهم كانت تنسكب وتنكب في عرض البحر، لتعيد تعريف الإنسانية من جديد، لقد سعى هذا الغول بكل السبل لمحو هوية هذه المدينة، وشطب سكانها من سجل الخلود".

هل بلغنا خبر تناهيد الأطفال وأنّات أمهاتهم وصيحات شيوخهم عندما سقطت المدينة في فم الغول؟

بقيت معلقة.. بل وشاهدنا الأم وهي تلد طفلها وبيده الوصية؟ ورأيناها وهي ترسم اسم طفلها على معصمه، وتقوم بتطريز كفن يضمها ويضم ما تبقى من أجزاء طفلها الزكيّة! وشاهدنا الكلاب وهي تلتقم حياته ومستقبله، وأمعائه كانت مبتورة ومتدلية؟!".

قفز السؤال بحرقة من عين نبيل -الحفيد- لسيدو نبيل: "لم نحرك أي ساكن إبان هذه الجرافة الغير بشرية التي فقأت عين المدينة وطعنت قلبها، ووئدت سكانها بركام الأبراج الأبنية؟

بلى..

بلا وعي سأل نبيل -الحفيد- على أمل: "هل انتفضنا لإنقاذ المدينة من جوف هذا الغول؟".

انتفض الشعراء بالشعر، والكتاب والأدباء بالرواية والقصص، والمشايخ ورجال الدين بالخطب والدروس والمواعظ، وأصحاب الأُرْبة بالتحليلات والتأويلات وكتابة المقالات، والعامة بالإحتشاد في الطرقات والخروج بالمسيرات، ولو تعلم ما هو الأغرب من كل هذا حفيدي؟!

سأل نبيل -الحفيد- سيدو نبيل بدهشة المقتول: "ما هو الغريب؟ ولو أن كل ما قلته يا سيدو غريب!".

كان منهم من واجه الغول بالرقص!

نبيل -الحفيد- شاتماً لحظه بين هذه الذكور المخصيّة: "بالرقص؟! لا أصدق؟ بالرقص؟ وكيف لنا أن نجمع انسانية تمزقت تحت إبط هذا الغول، وأن نسحبها

من تحت أزقته الباردة بالرقص؟".

كانوا يعتقدون أن الغول سيحمل حقيبته ويغادر المدينة بالرقص!

سيختبئ التاريخ داخل معطفه ويستر وجهه، إزاء هذا الأمة التي كانت تهز بخصرها داخل صفحاته؟!

ولو تعلم ما الذي حدث لهم عندما رقصوا أمام الغول يا حفيدي؟

أكلوا كالثور الأبيض.. أليس كذلك؟

صدقت وربي.. أنت كيّس فطن.

المسألة لا تحتاج الى هذا الذكاء يا سيدو! متوقع ان مثواهم سيكون في معدة هذا الغول! فكيف لبلد أن تتخلص من حيوان همجي بالرقص؟! هذا سخف ما بعده سخف".

لك الحق بحكمك يا حفيدي، ولله درك كيف لبلد أن تحرر من قبضة هذا الغول بالرقص؟!".

سيدو.. هل طلبت هذه المدينة نجدتنا صراحة؟!

أجل.

ولم نلبي جروحهم؟!

للأسف.

لماذا؟ لماذا لا يوجد من ينتصر لجمجمة هذه المدينة المغروسة في مشابك هذا الغول؟ أليست هذه المدينة عربية؟

بلى.

أليس أهلها من ملة الإسلام؟

بلى.

وحتى لو لم يكونوا مسلمين، ألم يقرع أي شخص عقول الناس وقلوبهم باسم الإنسانية، لينتفضوا في وجه هذا الغول؟ تحت أي مبررات لم تنهض بلدتنا لنصرة أهل المدينة؟ ما هي حججنا السياسية والعسكرية والتاريخية والعلمية والشرعية التي جعلتنا نغض الطرف عن الوقوف الى جانبها".

الوهن يا حفيدي.

تخاذلنا عِلّته الوهن؟

أحد أسبابه.

نحن نعيش في حنق الغول الذي سارت المدينة بسببه عرجاء، ألسنا كالسيل في وزننا وتعداننا؟ ثلاثون ألفاً يعجزون عن كسر غول واحد؟! كان علينا استغلال كتلتنا السكانية الهائلة التي تبلغ أضعاف أضعافه، فنحن قادرون على إرباك خطواته.

(نحن في العدد كثير، لكن لا وزن ولا قيمة لنا، حبنا للدنيا وللخلود فيها، وخوفنا من الموت ولقاء الله -تبارك وتعالى- كان سببا في وهننا، ونحن لسنا كالسيل، وإنما كغثاء السيل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها"، فقال قائل: ومِن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن». فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: "حب الدنيا، وكراهية الموت").

بعيدا عن هذا الموقف العاجز، وهذا التخاذل المؤسف والواضح الذي سيكتبه التاريخ بكل خجل -والذي أعدّه جريمة عظمى- ما الدافع لكل ذلك؟ لماذا سعى هذا الغول الى شق صدر هذه المدينة وسكانها بخطواته العبثية؟! وما ذنب الأطفال الذين يركضون من صوته ويتطايرون من صرخاته؟!

لأنه ليس له تاريخ ولا جغرافيا.

مشرّد؟

استعماري، لا يمكنه الإنفكاك عن بنيته الإستعمارية، والتي أنتجتها تلك العجوز الشمطاء".

أي عجوز؟

عجوز فاجرة كانت تاجرة، ولكن ليس بالحسابات، وإنما بالأوطان، فحينما يتعلق الأمر بالغول تختلف الحسابات بالنسبة لها نحو البلدة وأهلها.

وما الذي يمكن صنعه على يد عجوز بلغت من الكبر عتيّا، وصارت نحلت العظام ويابسة القوام؟!

لقد كان وجودها لغرض المادية الدياليكتية.

لم أفهم.. هل يمكنك تبسيط المراد يا سيدو؟

لقد كان وجودها من أجل التنسيق مع الغول وتسليم أهل البلدة قرباناً له على طبق من ذهب.

وكيف ذلك؟

ما ينافي العقل والمنطق انها كانت تجمع أسلحة الناس، وتقنعهم بالتفريط فيها، والتخلي عنها على حواف حكايتها الناقصة، في سبيل الحفاظ على حياتهم من أنياب ومخالب هذا الغول وكلابه".

وكيف أقنعتهم بأكاذيبها التي تبحث عن نصيبها من الخلاص بإيحاء من شبح ذكورتهم الذي يحوم حول خصرها؟

بالخوف.

الخوف من ماذا؟

(ملامح وجوههم كانت تطفح خوفا من الصراع والإشتباك معه لكي لا تكون النتيجة السقوط في مأزق وجودي، ففائض القوة الفيزيائية بين هذا الغول وأهل المدينة جعلهم يعلنون الإفلاس العسكري لمواجهته، كما أنه لا يمكنك التعامل مع حيوان بربري وهمجي عجز مع نفسه عن إنتاج شرعية له عبر الحوار، فأنتجت أسنانه ومخالبه الدمار، والقانون لا يمكنه التعامل مع كائن عُضويّ لاعقلاني يتحرّك عشوائيّاً وَيَتحسَّس بالغريزة كل ما هو مناف للمألوف والطبيعة، لذلك أعادت هذه العجوز هندسة الثقافة والوعي، وعملت على برمجة المعرفة من جديد في أدمغة أهل الأرض، فقامت بتفكيك الجغرافيا، وجعلتها بيئة خصبة للصراع من أجل البقاء على الكرسي، وكان الجوع هو الخط الدرامي، حيث روّضت الناس عندما ربطت أعناقهم بكسرة الخبز، وتم تدجينهم لبوق أغلق أبوابه وضيع مفاتيحه والذي عكس في نهاية المشوار تفاصيل الخنوع والإستسلام لهذا الحيوان الذي لا يرحم الصمت أيضاً).

وهل كنا نحن الوجبة التالية له؟

لم تكن هذه المدينة الأولى التي يُحلّق فيها هذا الغول، ولم تكن أجفان أهلها التي أثقلها النواح هي البداية، بل تناول في فمه بلدان كثيرة، كانت تظن باستسلامها له أن الوطن سيفرح، ولكنه بكى لهشاشة وجوده، ارتعش سقفه، وانكسر ظله، لصوت يسيل بالخرس، وكيف لأبكم أن يوقظ الوطن في نفسه؟! ولو استيقظ الوطن، كيف له

أن يقف فوق ميتٍ؟!

من أي زفرة جاءت هذه العجوز الشمطاء؟ وكيف للناس أن يسيروا خلف ظل كاذب؟.

كان إيقاع قدومها كلوحة سريالية، سحبت عقول الناس بصوتها حتى ضعفت قدرتهم على التفكير والسؤال، وانحرفت البوصلة، فانشغلوا بالترحيب بها فوق ساحاتها المتعددة، وبالإفراط في تقديم بيوتهم وحياتهم صراطاً لها، ولم يكن هناك صحوة أخرى لقيام عقولهم من جديد.

وهل سكنت منازلها؟

كلا.

كاد قلب نبيل -الحفيد- يتمزع غضباً عندما نأت هذه العجوز المنتهية صلاحيتها بخصرها عن كل هذه المشاعر المرهقة والتناهيد الرخيصة التي هرولت نحوها: "لماذا رفضت أن تقيم في منازلهم؟".

كان لديها قصر يشهق بأكثر من سبعة طوابق، يقف على أعمدة رخامية تصطفّ بعضُها خلف بعض، يغطيه ستائر ديباجة، تعلوه الأقواس المرصّعة بالحصى، ومن فوق هذه الأقواس أقواس تعلوها، يهيّء إليك عندما تشاهدها أنها قطعة واحدة لضبط هندستها وإتقان نحتها، يحوي عشرة أبواب من أبواب الماهون، غنية بالتصاميم المعقدة، والنقوش الجميلة، تود أن تأخذ صورة بجانبها لجمالها، ساحاته كثيرة، وأشجاره غزيرة، وممراته عجيبة وغريبة، كل ممر يُفضِي إلى آخر، سقفه مزركش بأحجار الياقوت، كأنه لوحة فنية، وكل سقف تنظر إليه أجمل من الّذي تتركه خلفك!".

وأين يقع قصرها؟

على سفح ذلك الجبل.

وكأنه أكربول أثينا! من هذا المهندس الذي أشرف على تصميمه؟ تحتاج الى منجنيق لسببين، الأول ليقذفك من فوق أسوراها السامية، والثاني ليجتاز هذه المسافة الهوائية النائية بينكم وبينها؟!

لم تكن الأسوار عبارة عن أحجار من الطوب الذي يقف برزخا بيننا وبينها فقط، وإنما بيننا وبين وعينا ووجودنا، وتزييفه بالمسابقات الغنائية، والمنافسات السطحية، وإلهائه بالمأكولات الغربية والمشروبات الروحية، وإشغاله بالمناصب الصفرية

والكراسي الخشبية، لتصفيتنا أمام الشاهد الصامت الوحيد، ألا وهي هذه العجوز التي أخفت مجازرها خلف عباءة هذا الغول.

يبدوا أن العجوز لعبت دوراً أساسياً في دفق المدينة المائج والمتلاطم في حنك الغول؟

(العجوز قالت بالحرف: "إذا أردتم الحفاظ على أنفسكم ومصالحكم عليكم أن تفعلوا شيئًا واحدا: ابقوا صامتين"، لأنكم إن تكلمتم لن تتمكنوا من استيعاب هزة الغول ورجته، التي دمّرت المستشفيات، وفجرت المدارس، ودكّت المساجد، وهدّت الكنائس، وجرفت الأشجار، وقصفت المنازل، وحرقت الأراضي، وفسّخت الأطفال، وشقّت النساء، وأجهضت الأجنة، ودكّت العجائز، وقتلت الشباب، وهجّرت من تبقى منهم، وحاصرتهم وجوعتهم، وعطلت الحياة، وقضت على ٨٠% من معالم تلك المدينة وتاريخها).

(ولكي لا يكون مصيرنا كمصير أهل هذه المدينة من مجازر وتجويع ودمار وتهجير أغلقنا الباب على أنفسنا، أعتقد أن قول الله سبحانه في كتابنا الكريم في هذه الآية يمثلنا: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ "الأية ٣٨ من سورة التوبة"، ولقد كتب العالم المسلم "محمد عبد الرؤوف المناوي" يقول: "من حاول قتل من خلقت الدنيا لأجله فقد حاول زوال الدنيا"، ونحن بصمتنا كنا شركاء في قتلهم!).

بكل أسف، حاولت بعض الحالات الفردية التمرد، وأن تسوقنا الى مستقبل مختلف، إلا أن هذه العجوز بصقت عليهم بالتصريحات، ولاحقتهم بالعقوبات والتعذيب والمؤبدات.

(لا يمكن لرجل واحد أن يصنع فريقًا، يتبعه تحريراً، قرأت مرة يا سيدو مقولة لداعية إسلامي أمريكي من أصول إفريقية يدعى "مالكوم إكس" والذي كان مدافعا عن حقوق الإنسان يقول: "عندما نستبدل كلمة \"أنا\" بكلمة \"نحن\"، حتى المرض يصبح عافية).

وهذا أكيد، نحلة واحدة لا تجني العسل؟! حتى الورقة يصبح وزنها أخف إذا حملها إثنان".

وجاء دورنا.. أليس كذلك؟

الغول في طريقه إلى البلد

كانت فجوة عميقة في الفهم، فالايمان بغول مسح المدينة أنه لن يطرق باب بلدتنا خلل في البصيرة، فبين فناء المدينة ورجاء بلدتنا أخلّ الغول بالقوانين والمعاهدات والمواثيق، وخرج صوته نحو بلدتنا.

كان صوته يتناهى الى آذاننا من بعيد، حتى قام رجال الأمن بتنبيه أهل بلدتنا بقدوم الغول الى البلدة.

صاحوا عبر مكبرات الصوت بإغلاق النوافد، وعدم فتح الأبواب والخروج من المنزل حتى ينتهي الغول من جولته، وأبلغونا بأنه سيتم إطلاق النار على أي شخص يفتح باب منزله، أو يطل من نافذته بناءًا على تعليمات العجوز.

نظر نبيل -الحفيد- وأنفاسه تتثاقل نحو سيدو نبيل، وكأنه يتنفس من خرم الإبرة، ثم قال: "وماذا كانت مهمة رجال الأمن؟".

توزعوا في كل الطرقات المحيطة بالبلدة، ووقفوا في مشهد أرتال أمنية تفصل كل مجموعة عن أختها ٢٠ متراً، وكانت مهمتهم تنحصر بفرض طوق حول البلدة بأكملها، لمنع أي شخص من الدخول أو الخروج.

وكيف اخترق الغول هذا الحزام الأمني، ودخل الى البلد؟

دون صراعات أو ثورات.

بأي سبيل؟

من الباب.

ومن فتح له الباب؟

رجال الأمن.

كانت أحرف نبيل -الحفيد- ترفض واقعه، وتبحث عن حقها في ساحة يعلوا فيها صوته بصوت بلده الذي أخرسه رجال الأمن: "رجال الأمن نزعوا عن جسد البلد لونها الأخضر، وسيحنّون الى زيتونها، ويشتاقون الى تينها، عندما يكونون في ظلام المنفى".

يا حفيدي.. عندما طالعت كتاب "قراءة المستقبل " للدكتور "مصطفى محمود" رحمه الله، وجدت أن دأب رجال الأمن كان صنع طريق مسلية للعدو يتضامن معه شعب مجنون، فعندما أراد الصينيون القدامى أن يعيشوا في أمان؛ بنوا سور الصين العظيم، واعتقدوا بأنه لا يوجد من يستطيع تسلقه لشدة علوه.

ولكن خلال المئة سنة الأولى بعد بناء السور تعرضت الصين للغزو ثلاث مرات، وفى كل مرة لم تكن جحافل العدو البرية فى حاجة إلى اختراق السور أو تسلقه، بل كانوا في كل مرة يدفعون للحارس الرشوة ثم يدخلون عبر الباب، قد انشغل الصينيون ببناء السور ونسوا بناء الحارس، مع تواجد فارق واحد بيننا وبين الصينيين؟

وما هو؟

بأمر من العجوز فتح رجال الأمن باب البلدة للغول.

تباً لهذه العجوز التي تتحكم في فم المدينة!!

((بناء القدوة يأتي قبل بناء كل شيء، يقول أحد المستشرقين .. إذا أردت أن تهدم حضارة أمة فهناك ثلاثة وسائل وهي:

هدم الأسرة.

نسف التعليم.

إسقاط القدوات والمرجعيات.

لكي تهدم الأسرة، عليك بتغييب دور (الأم) اجعلها تخجل من وصفها ب"ربة بيت"

ولكي تنسف التعليم، عليك ب(المعلم) لا تجعل له أهمية في المجتمع، وقلل من مكانته حتى يحتقره طلابه.

ولكي تسقط القدوات والمرجعيات، عليك بالمؤثرين من (العلماء والمثقفين والمسؤولين)

فإذا اختفت (الأم الواعية)

واختفى (المعلم المخلص)

وسقطت (القدوة والمرجعية)

فمن يربي النشئ على القيم!!

وهكذا تهدم الحضارات يا حفيدي، عندما نقوم بإسقاط صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فيها)).

العجوز.. ها.. تبا لها!!

وهذا لا يُعفي رجال الأمن.

لماذا؟ أليست العجوز هي صاحب الكلمة الأولى والأخيرة كما قلت قبل قليل مستشهدا بكلام المستشرق؟ أليس الأمر أمرها؟

صحيح.. لكنهم لم يقفوا في وجه شتاتها الذي أشعل جهنم، وجعل وقودها أهل المدينة وأطفالها الأبرياء**!؟** ولنا في فرعون وجنوده خير مثال.

جنود فرعون كرجال الأمن لدينا؟

أجل.. لقد أخذ فرعون جنوده الى العذاب يا حفيدي.

وأين جاء ذلك؟

في القران.

في أي موضع في القرآن؟

في سورة يونس، "آية: ٩٠-٩٢"، قال تعالى: (وَجاوَزنا بِبَني إِسرائيلَ البَحرَ فَأَتبَعَهُم فِرعَونُ وَجُنودُهُ بَغيًا وَعَدوًا حَتّى إِذا أَدرَكَهُ الغَرَقُ قالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلَّا الَّذي آمَنَت بِهِ بَنو إِسرائيلَ وَأَنا مِنَ المُسلِمينَ*آلآنَ وَقَد عَصَيتَ قَبلُ وَكُنتَ مِنَ المُفسِدينَ*فَاليَومَ نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكونَ لِمَن خَلفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثيرًا مِنَ النّاسِ عَن آياتِنا لَغافِلونَ).

وفي سورة طه، "آية: ٧٨"، قال تعالى: (فَأَتبَعَهُم فِرعَونُ بِجُنودِهِ فَغَشِيَهُم مِنَ اليَمِّ ما غَشِيَهُم).

وفي سورة القصص، "آية: ٤٠"، قال تعالى: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ).

في سورة الزخرف، "آية: ٥٥"، قال تعالى: (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ).

وسورة الدخان، "آية: ٢٣-٢٤"، قال تعالى: (فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ*وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ).

وفي سورة الذاريات، "آية: ٤"، قال تعالى: (أَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ).

لأن جنوده اتبعوه، أغرق الله فرعون وجنوده في اليم فهلكوا عن آخرهم.

الغول في البلد

ماذا حدث يا سيدو بعد أن دخل الغول الى البلد؟!

توالت فيها النوائب تلو النوائب.

أصبح الجو فيها مسرفاً بالفزع! أين انقض يا سيدو بشهوته المجبولة بالدم في البداية؟

في البداية قتل الكاميرا.

ولماذا طارد العدسة في البداية؟

اغتال الشاهد الوحيد على المحرقة التي اجترحها.

من؟

الأجسام الصحفية، بحركاته العشوائية والبهلوانية أصاب رؤوسهم، أيديهم، أرجلهم، ظهورهم، بطونهم، وماتت العدسة.

وماذا عنّا؟ هل كانت أحلامنا تتسلل في مؤخرة المخدة، وعيونهم عرجاء وضريرة تمد بأيديها نحونا لنعطيها خواءنا؟

انطلقنا بمساعيهم وإصرارهم لتعريته وكشف جرائمه التي يقوم بها، والغول قابل ذلك بمستوى لا نظير له من المباشرة الجلية لإزهاق أرواحنا وتخويفنا طلباً في محو الملموسية على الأرض وإيقاف نشر الحقيقة، ولم تتوقف هجماته علينا في الميدان فقط، بل انبسطت وتوسعت إلى شجّ أفراد عائلاتنا في المنازل، فقصف بيوتنا، وفجرها فوق رؤوسنا، ودمر ممتلكاتنا، وقصف أطفالنا، وهذا القصف لم يأتِ كحدث مفاجئ، بل كان الغول يعرف ما يضربه تماما، ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي يستهدف فيها الغول أهل البلدة عمدا، بل تابع استهدافه المتعمد لنا، في محاولات منه لا تنتهي لإسكات صوتنا الذي يفضح ممارساته الجينية الحمقاء ويُعرّي مزاعمه الخرقاء أمام العالم.

وماذا كنت تفعل في هذه الأثناء يا سيدو؟

كان يتجول الغول في عقلي المتعب، وكنت أنظر الى أنفاسي المقهورة مقابل أنفاس غيري الهاربة من معدة هذا الغول الجاروشية، لم أتحمل ذائقة مرارة التخلي، ولا أريد أن أموت بلهيب الخذلان بعد ذوبان الجسد في مقبرة البلد، ولا أريد أن تسطو العجوز على عالمي، لتكتب بالكذب روايتي، أو أن تبيعها للنسيان، فكم جالت سنوات مرهقة في أورقة جسدي، وأنا اليوم على موعد للخروج مني، لأفكك

صوت أزيز الغول الذي ملأ الفراغ وانتشر في السماء، فكتم نفس الأطفال، وانغرس في طنايا أمهاتهم، لذلك كان لزاما علي أن أنطلق في الهواء الذي تآلفت فيه كل ألوان الرصاص.

هل كنت خائفاً؟

كان يمتلكني شعور أنني لن أعود من هناك على قيد الحياة، وهذا ما شعر به بعض الذين دفعتهم الوطنية وحميّة الدين، ففي ظل كثافة هجمات الغول كان من غير الممكن أن نعود دون أن تصيبنا أنيابه الطائشة، وتنغرس فينا مخالبه الطائرة، ولكن هذا لم يمنعنا من التمرد على واقع فرض علينا، وكنا نحن سبب مباشراً له.

في أي أرض كنتم؟

توزعنا في أماكن مختلفة، كان يفصلني عنه سبعة بنايات، حيث كان بيني وبين المحرقة التي يجترحها سبعة كيلومترات، ولكني كنت بمأمن عن غاراته بفضل المباني التي كنت أتوارى خلفها، وبعد مضي سبعة ساعات أخذ الخوف ينتشر في صدورنا، دقات قلوبنا ارتفعت، والخوف راح يتعاظم من هول المشاهد التي رأيناها.

ماذا رأيتم؟

وجعاً يتنقل من طفل إلى آخر، صرخات مخنوقة، جلسة صغير دون أحد، بيت صامت، استراحة في مقبرة، حلم مذبوح، أماكن مسروقة، بحر حزين، بلد تحاول بإلحاح قدومها المثلوم الى روحي، لعل روحها تعود للحياة من جديد.

وهل واجهتم الغول؟

ترنحنا بين هجماته، حاولنا مراوغة الموت في كل لحظة، حتى مضغتنا قذيفته الزرقاء، ونال كل واحد فينا نصيبه من الموت بصفته انسان فقط، استيقظت بعدها بعد مضي سنين طويلة على سقف نشيد حزين، وذاكرة مسحت بمنديل الغول، وعجوز توحدت بخلايا البلد، وأناس يسكرون ويحششون فوق كتفها، كانت هزيمتنا الحقيقية ضعف عضلة الإيمان؟!

هل بالإمكان أنسنة الغول؟

سؤال مهمّ في زمن الالتباس.. هل ننتظر حتى ينبت للقرد أجنحة؟

بالطبع لا..

لو اجتمعت الممالك المعلومة والمخفية، والأساطير اليونانية، وبنت الريح، وفلوريكا

بارو الغجرية، على تقويم اعاقته الفطرية، ما اسطاعوا وما استطاعوا له سبيلا!!
ولما كان حراكنا فيه يساهم فعلاً في خفض الأذى عسكريّاً، أو في تبييض بنية الكفر فيه سياسياً؟

أين كانت العجوز من هذه الحرب؟

في الجنازة..

أي جنازة؟

بعد المجازر التي أحدثها الغول في روح البلد، وقفت العجوز الى جانب الغول كتفاً الى كتف في الجنازة، صافحته فوق أنقاض بلدتنا، وقرؤوا الفاتحة على أرواح الشهداء، والتقط الصحفي لهم صورة في مشهد سقوطٍ يجعل من هذه العجوز طالبة مؤدبة في حضرة الغول.

والى أين نحن ماضون؟

نحن على حافة صوت طازج، يرسم الحدود بالدم دون اعتذار، لا بالإنسانية، بل يمسح بالممحاة الكلمات من الرواية فيخلع عنها الحياة، في كوكب لا حيز فيه للمهزومين، ولا مائدة للمهضومين، إلا اذا امتلأت الذاكرة بالغضب، ثم انفجرت من نافذة الجسد، في وجه زمن يُقدّم فيه الجلاد نفسه كضحية، والضحية مطالبة بصك برقية اعتذار، وإزاء هذه المسرحية، علينا أن نعي أن الغول هو غير طبيعي، يتنكر بأكثر من وجه، ويحمل بيده أكثر من علم، لا يرتوي الا بشرب الدماء، وأن العجوز لعبته التي وئدت في مقابر التاريخ، وأن الإنسان تم تشييئه وغمرهُ في إغماءات وعائية مبهمية.

سيدو نبيل.. من يمكنه كسر جدار الصمت؟ من يمكنه تجاوز الحنجرة الصوتية بأن يحمل البندقية؟

من لا يُفكك افسانة الغول، سيظل سجينه للأبد، لذلك أوصيك يا حفيدي بهذه الوصية..

وصيّة سيدو نبيل
لحفيده نبيل

يا حفيدي...

أحاول العثور على الحمامة البيضاء وسط التناهيد الكثيرة، وأنّات النساء، والنص المكتوب.

يا حفيدي...

ستعيش كثيراً، وتموت كثيراً، فوطننا حزين، يبحث عن محبوب.

يا حفيدي...

وحيث حوّر الغول شخوصهم من كاريكاتورية الى دموية، وأمطر الخارطة حدوداً وجنود.
نحو ذلك الرحم العقيم ادفع، وافتح كل طريق مسدود.
واكسر أسرك من تحت ذراعه، وفوق رفاتك تمرّد، حطّم كل قيد مصفود.
واقطع يده اليمنى التي تحمل ماخوراً وهميّاً، واسقط من يده اليسرى البارود.

يا حفيدي...

ولا تخف.. دع الحمامة تبني عشها فوق رأسه، وأعدل هذا الوطن المقلوب...

انتهت الحكاية

أنا نبيل محمد نبيل كبها، أحب أن أخبر كل من حمل حكاية "سيدو نبيل" بين يديه وقرأها: "ما أجمل سيدو نبيل في حياتي، الحمدلله أنه خلقني في حياة سيدو نبيل، أحب وجهه المرسوم كالقصيدة الحزينة، وصوته المخيف حينما يقفز من فوق أسوار المدينة، أعشقه وأخشاه، لأنه كتاب أضاء الحياة بصفحاته النورانية، تعلمت كثيرا من مدرسته، تربعت بين يديه، وأخذت من فمه هذه الحكاية لأقصها عليكم..

السيرة الذاتية لسيدو نبيل

من هو نبيل سليمان فارس قبها؟

نبيل سليمان فارس قبها (١٩٥٩م) هو فلسطيني من مواليد مدينة جنين، ولد في قرية طورة الغربية لعشيرة مشهورة ومعروفة في فلسطين (آل كبها) تلقى تعليمه الابتدائي والاعدادي والثانوي في بلدة يعبد، ثم انتقل الى محافظة نابلس، حيث التحق بجامعة النجاح الوطنية عام ١٩٧٨م، وتخرج منها عام ١٩٨٢م، حيث حصل على شهادة البكالوريوس في المحاسبة.

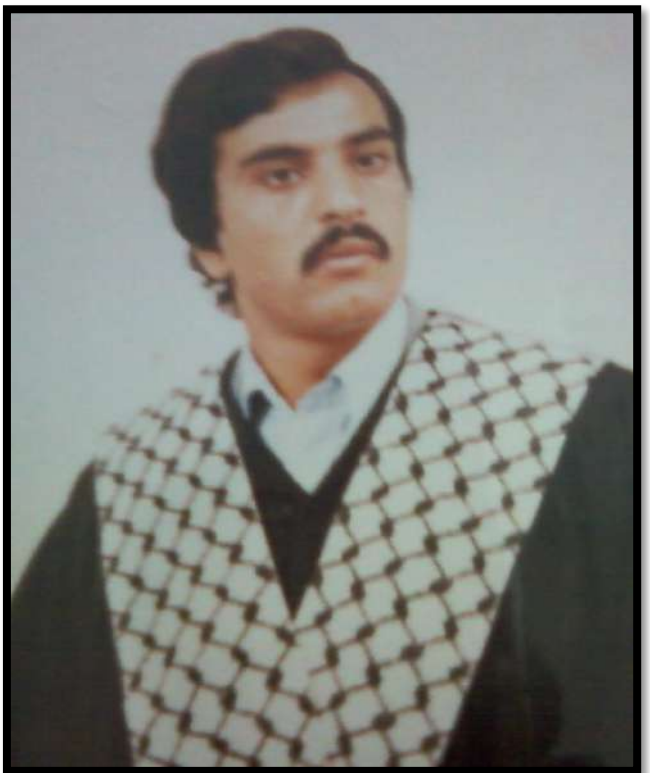

المعلومات الشخصيّة
الميلاد : ٣٠- ١ - ١٩٥٩م
الجنسية : فلسطيني
الإقامة : فلسطين
النشأة : قرية طورة الغربية
المحافظة : جنين
الديانة : مسلم
الطائفة : أهل السنة والجماعة
المذهب : شافعي
الحياة العملية
التعليم : حاصل على شهادة البكالوريوس من جامعة النجاح الوطنية (١٩٧٨-١٩٨٢م)
التخصص : محاسبة - إدارة
المهنة : مدير عام متقاعد
المؤسسة : وزارة التنمية الاجتماعية الفلسطينية ، سلطة البيئة الفلسطينية
الحزب : مستقل

غادر فلسطين نحو المملكة العربية السعودية، حيث عمل محاسباً وإداريّاُ في شركة سكونيست، وشركة سعودي أوجي (١٩٨٢-١٩٨٧م) وكان صاحبها المرحوم رفقيق الحريري، وقد تنقّل أثناء عمله في عدة مناطق "جدّة، الطائف، الرياض".

ثم انتقل الى شركة علوان، حيث كان يعمل مديراً ماليّاً (١٩٨٧-١٩٩٣م) ومديراً لصيانة مشروع "خشم العان" السكني الخاص بالحرس الوطني السعودي.

في تلك الفترة كان الأستاذ نبيل سلميان قبها من المساهمين في دعم الصندوق القومي الفلسطيني، وهو الذراع المالي والإداري والرقابي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وقد تأسس عام ١٩٦٤م، لدعم أنشطة المنظمة وتمويل مؤسساتها ومشاريعها المختلفة.

عند توقيع اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣م وقيام الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات "أبو عمار" بتأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية، وبناء المؤسسات والوزارات الفلسطينية على أراضي الضفة وغزة، غادر المملكة العربية السعودية الى وطنه فلسطين، تاركا خلفه المناصب وكل المغريات المادية ليلتحق بكوكبة المؤسسين، ويكون أحد الايادي التي تبني المؤسسات الفلسطينية، وتقيم دولة فلسطين وعاصمتها القدس الشريف.

تقلد منصب رئيس قسم المشتريات في وزارة الشؤون الإجتماعية عام ١٩٩٦م، حيث كانت السيدة انتصار الوزير -زوجة الشهيد والمسؤول الكبير في منظمة التحرير الفلسطينية "خليل الوزير" والذي اغتالته إسرائيل في تونس عام ١٩٨٨م- هي وزيرة الشؤون الإجتماعية وقتها.

كان أول من نقل فكرة عمل برنامج محوسب الكتروني، ثم قام بتطبيقها في وزارة الشؤون الاجتماعية، لتنتقل بعدها الفكرة الى باقي مؤسسات السلطة.

ثم وضع خبراته ليصبح لاحقاً مكلف بدائرة المشتريات في الوزارة.

عمل محاضرا في كلية أبو جهاد -الكائنة في محافظة رام الله في مدينة بيتونيا- في مجال المحاسبة والإدارة، وتخرج على يديه ثلة من النخب المتخصصين في هذا المجال.

إنتقل الى وزارة شؤون البيئة الفلسطينية، حيث قام بتزكيته الوزير "د. يوسف أبو صفية" رحمه الله، الى سيادة الرئيس الفلسطيني الراحل "ياسر عرفات" رحمه الله، ليقوم الرئيس ابو عمار بمنحه درجة مدير، حيث شغل منصب مدير الدائرة المالية عام ١٩٩٩م، ثم مدير دائرة الرقابة والتفتيش.

وأثناء عمله في وزارة الشؤون الاجتماعية التحق بعدة دورات محلية ودولية.

غادر الى تونس، حيث التقى وزير البيئة التونسي حينها، والذي قام بارسال تحياته مع الاستاذ نبيل الى الرئيس ابو عمار والى الشعب الفلسطيني.

في عام ٢٠٠٧م تم اصدار مرسوم رئيس من قبل الرئيس محمود عباس "أبو مازن"، بتعيين الاستاذ نبيل قبها مدير عام ديوان الوزير في وزارة التنمية الإجتماعية، حيث كان وزير التنمية الاجتماعية حينها أ. فخري التركمان.

عمل مع العديد من المسؤولين والوزراء والسياسيين في السلطة الوطنية الفلسطينية، كان منهم عضو المجلس التشريعي "جمال أبو الرب"، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح "سلطان أبو العنين"، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح "عثمان أبو غربية"، الوزير "كمال الشرافي"، الوزيرة "ماجدة المصري"، الوزير "جواد عواد"، الوزير "وصفي كبها"، الوزير "هاني عابدين، الوزير "علي أبو دياك"، والأمين العام لإتحاد عمال فلسطين "حيدر كبها"، ورئيس الهيئة الإسلامية المسيحية "حنا عيسى"، الوكيل "داوود الديك"، الوكيل "أنور حمام"، الوكيل "موسى أبو غربية"، الوكيل المساعد "عزام أبو بكر"، الوكيل المساعد "خميس أبو عابدة"، والمدير العام "خليل ياسين"، والكاتب "د.أحمد رفيق عوض"، والعقيد "جمال عبادي"غيرهم الكثير.

وتم تكريمه من قبل عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، ورئيس هيئة شؤون المنظمات الاهلية، الوزير "سلطان أبو العينين"، بحضور محافظ نابلس، ورئيس بلدية نابلس، وعدد كبير من المسؤولين والسياسيين على مستوى الوطن في احدى الدورات التخريجية في محافظة نابلس.

تم تريشحه لتولي ملف المخدرات في الوزارة، ثم تعيينه من قبل وزير التنمية الاجتماعية ليكون عضو اللجنة الوطنية العليا للوقاية من المخدرات والآفات العقلية، وعضو اللجنة الوطنية العليا للإيدز والأمراض المنقولة جنسيا والأمراض المنقولة بالدم، وعضو اللجنة الوطنية للجريمة، وكان هو عضو لجنة صياغة قانون المخدرات الفلسطيني بالتعوان مع الجهات ذات الإختصاص، والذي تم اقراره من قبل سيادة الرئيس محمود عباس عام ٢٠١٥م.

عقد العديد من المؤتمرات في داخل فلسطين وخارجها، ونظّم المئات من الندوات التوعوية حول الآثار النفسية وآفة المخدرات، وورش العمل حول مخاطر المخدرات والوقاية منها، بالتنسيق مع الجمعيات الخيرية، والمؤسسات الاكاديمية، والجامعات الفلسطينية، وإدارة السجون، والمراكز التأهيلية والإيوائية، ومراكز الإصلاح وإرشاد الطفولة، بالشراكة مع جميع المؤسسات ذات الاختصاص للحد من انتشار آفة المخدرات في المجتمع الفلسطيني، وخاصة مناطق القدس الأكثر عرضة لهذه الآفة، من خلال سلسلة من البرامج والخطط التي تهدف إلى زيادة الوعي بين فئة الشباب.

مؤتمر فى المملكة الأردنية الهاشمية

مؤتمر فى جمهورية مصر العربية

ورشة عمل في جامعة القدس "أبو ديس"

ورشة عمل في الجامعة العربية الأمريكية

ورشة عمل في جامعة فلسطين الأهلية

ورشة عمل في محافظة جنين

ورشة عمل في محافظة الخليل

ورشة عمل في محافظة طول كرم

ورشة عمل في محافظة نابلس

ورشة عمل في محافظة رام الله

ورشة عمل في محافظة قلقيلية

ورشة عمل في محافظة رام الله والبيرة

ورشة عمل في محافظة بيت لحم

ورشة عمل في محافظة أريحا

ورشة عمل في قيادة الشرطة - نابلس

ورشة عمل في قيادة الشرطة - جنين

ورشة عمل في قيادة الشرطة - بيت لحم

ورشة عمل في قيادة الشرطة - رام الله

ورشة عمل في قيادة الشرطة – ضواحي القدس

ورشة عمل في فندق البيست ايسرن – رام الله

ورشة عمل في فندق السيتي إن – رام الله

ورشة عمل في مركز الإصلاح - بيتونيا

ورشة عمل في مركز دار الأمل - البيرة

ورشة عمل في مركز رونالدو - رام الله

ورشة عمل في جمعية الصديق الطيب - رام الله

ورشة عمل في مركز خليل أبو ريا - رام الله

ورشة عمل في مركز التأهيل الوطني - رام الله

استهدف الورش التي نظمها الاستاذ نبيل قبهاعدة فئات تندرج تحت مظلة وزارة التنمية الاجتماعية، منها مراكز تأهيل الشبيبة والفتيات في كافة المحافظات والمراكز الإيوائية والجمعيات الخيرية ومراكز التأهيل والاصلاح، والتي تأتي انسجاماً مع توجهات الوزارة في إطار عمل اللجنة الوطنية العليا للوقاية من المخدرات بالشراكة مع جميع المؤسسات ذات الاختصاص للحد من انتشار آفة المخدرات في المجتمع الفلسطيني وخاصة مناطق القدس الأكثر عرضة لهذه الآفة، من خلال سلسلة من البرامج والخطط التي تهدف إلى زيادة الوعي بين فئة الشباب،

كما وركزت بشكل كبير على فئة طلبة المدراس وطلاب المراكز من الحالات الاجتماعية والاسر الفقيرة، وأشار فيها الاستاذ نبيل قبها إلى أن اللجنة الوطنية تقوم بشراء الخدمات لعدد من المؤسسات في سبيل توفير الوقاية والحماية للأشخاص المدمنين والمتعاطين للمخدرات.

واستهدفوا أيضا الأسر التي يعاني أحد أفرادها من مشكلة تعاطي المخدرات، وقدموا لهم العديد من الخدمات والمساعدات، لأن مكافحة هذه الآفة واجب وطني وديني يجب أن يحظى باهتمام المجتمع.

وعند تقاعده عام ٢٠١٩م استلم منصب المدير المهني لمركز مكافحة المخدرات التابع لجمعية الهدى في محافظة القدس.

وهو الآن اختار أن يقضي وقته بجنب الله، وأن يجالس أهل الذكر والعلماء والكتاب والأدباء.

الفهرس

إهداء ٥

ابني نبيل ٦

قبل أن يدخل الغول إلى البلد..... ٧

الغول في المدينة ٣٦

الغول في طريقه إلى البلد ٤٤

الغول في البلد ٤٨

وصية سيدو نبيل لحفيده نبيل ٥٢

انتهت الحكاية ٥٤

السيرة الذاتية لسيدو نبيل ٥٥